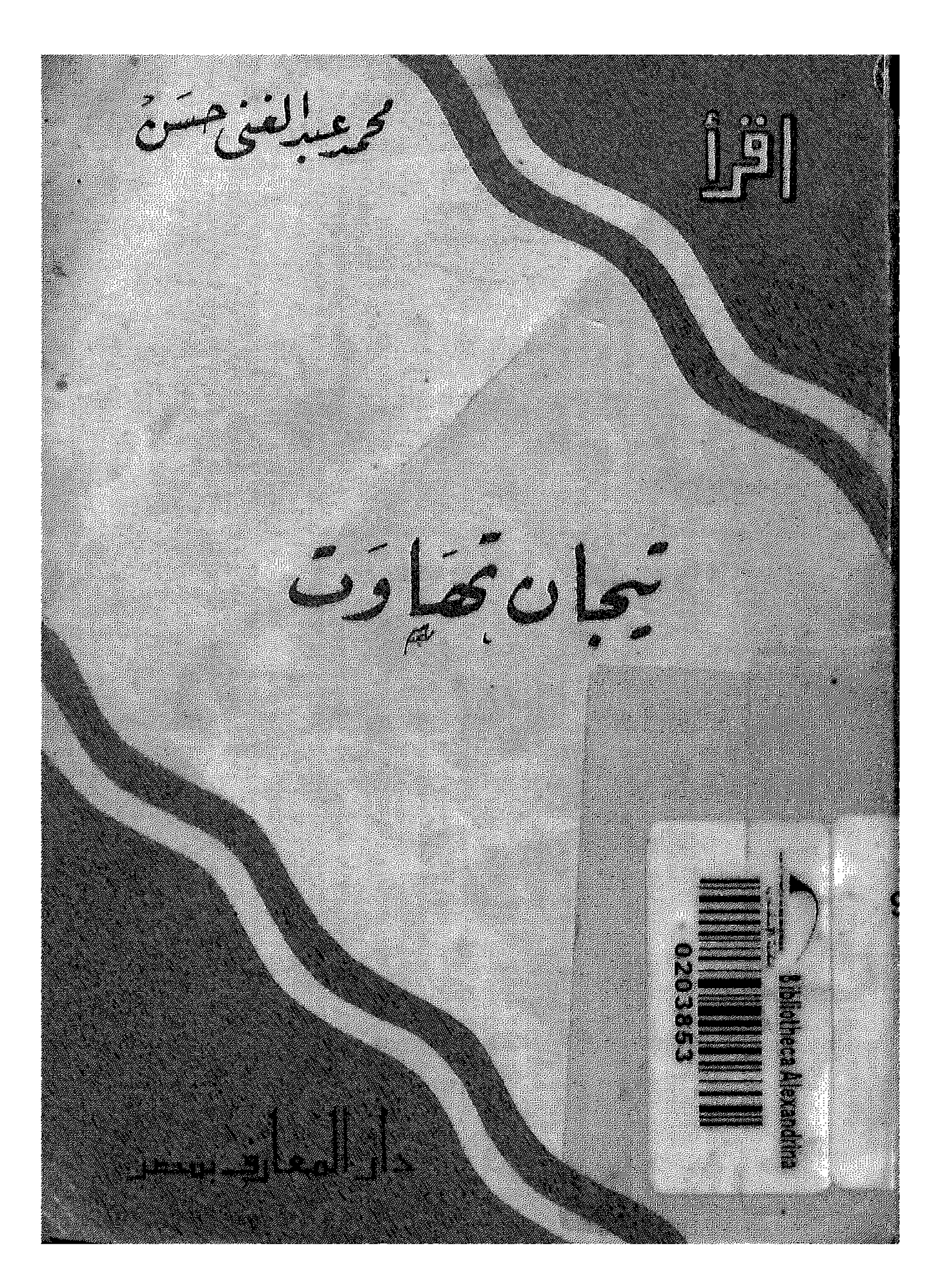

اقرأ
محمد عبد الغني حسن
تيجان تهاوت
دار المعارف بمصر
Bibliotheca Alexandrina
0203853

اهداءات ١٩٩٩

ا/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

تیجان تھاوت

محمد عبد الغني حسن

تيجان تهاوت

اقرأ ١١٧
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١١٧ — أكتوبر سنة ١٩٥٢



استهلال

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير »

قرآن كريم

عرش على صنم

لم يكن البطل الفاتح «محمد بن القاسم الثقفي» هو أول جندي مسلم وطئت قدماه أرض السند في العصر الأموي . ففي السنة الثالثة والأربعين من الهجرة غزا المسلمون السند غزوة استطلاع ، ولكنهم لم يمعنوا في البلاد ، ولم يستطيعوا أن يدخلوا في قلبها لكثرة ما فيها من المخاضات والأوحال ومناقع المياه .

وفي زمن الحجاج بن يوسف الثقفي كان « ابن مسعر التميمي » عاملا للدولة الأموية على ثغر السند ، إلا أن العرب ظلوا على مرابطهم في سواحل الهند وثغورها .

وكان أفراد من العرب وأهل السند يترددون على أماكن في داخل بلاد السند ، ويجوبون أرضها طلبا للتجارة أو سعيا وراء الرزق ، وكانوا يحدثون الناس عند عودتهم بطرائف من هذه البلاد ، وغرائب من أحوالها وعجائب أمورها . . . فكانت تغتلي في نفوس القوم رغبة ملحة في فتح هذه البلاد وضمها إلى

اللواء الإسلامى ، كما انضوت تحته ألوية الفرس والروم وغيرهما من البلدان والممالك الضخام .

وكان فى الشباب العربى المسلم الناهض شاب يجتمع مع الحجاج بن يوسف الثقفى فى النسب . فهو ابن عمه ، ويلتقى معه فى « الحكم بن أبى عقيل » .

ولم يكن محمد بن القاسم ابن عم الحجاج — قد خطا إلى العشرين بعد حين قامت فى نفسه الرغبة إلى الجهاد والفتح . لقد كان فى السابعة عشرة من عمره حين استعمله الحجاج على ثغر السند ، وحين سير معه ستة آلاف مقاتل من خيرة الشباب العربى الذين تمتلىء نفوسهم حماسة وتدفقاً وتشوقاً إلى خوض الغمرات ، وعدم المبالاة بالأهوال

وجهز القائد الشاب بكل ما يحتاج إليه جيش يضرب فى سبيل الله ، ولم يفت إدارة التموين فى ذلك الجيش أن تمده بكل ما يخطر على البال وما لا يخطر من وسائل الإمداد والإعداد . . . حتى الخيوط والإبر والمسال التى قد يحتاج إليها الجند فى رتق ثيابهم حتى لا تتسع خروقهم على الراقع . . .

وكان الحجاج على معرفة تامة بأحوال هذه البلاد النائية ؛

وهى معرفة لم يخلقها العيان والمشاهدة . ولكن أكدتها الأخبار الوثيقة التى كان الحجاج يلتقطها من أفواه السياح والرحالة والتجار والمستطلعين .

وقد بلغ من عناية الحجاج بتموين الجيش الذاهب إلى بلاد السند أنه سمع أن الخل فى هذه البلاد شحيح غاية الشحة، وأن جنوده قد لا يستغنون عنه فى الطبخ والاصطباغ به . . . فعمد إلى القطن المحلوج فنقع فى الخل الخمر الحادق ، ثم جفف فى الظل. . . ثم قال : إذا صرتم إلى «السند» فانقعوا هذا القطن فى الماء ثم اطبخوا به واصطبغوا . . .

وقد أغنت هذه الحيلة الطريفة هذا الجيش عن أن يحمل معه الخل فى زجاجات وأوعية قد تعطب على الطريق ، فوق أنها عبء ثقيل على ظهور الخيل والدواب ، التى يجب أن يخفف عليها وهى ذاهبة إلى ميدان القتال .

وسار محمد بن القاسم إلى «مكران» فأقام فيها أياما ، وما زال ينتقل من بلد إلى بلد ، وتسلمه أرض إلى أرض ، حتى أتى مدينة « الديبل » وكانت أهم بلد بالسند .

واستقرت النوى بالقائد الشاب فى مدينة « الديبل ». ووافته

السفن الحربية التى كانت محملة بالرجال والسلاح والأداة ، فكانت الغارة على المدينة السندية المقدسة برية بحرية .

وأخذ الجنود يتخففون من وعثاء الرحلة ؛ ولكنهم سرعان ما حفروا الخنادق وركزوا الرماح عليها ، ونشروا الأعلام ، وأنزل الناس على راياتهم فى منازلهم المخصصة لهم .

وكان القائد الشاب قد حمل معه فيما حمل من عدة القتال منجنيقاً عظيما يقال له « العروس » . وبلغ من ضخامة « العروس » وعظم حجمها أنها كانت تحتاج إلى خمسمائة رجل لإدارتها وإمدادها . وكانت ترمى بالحجارة الضخمة على مسافة بعيدة فتدك أقوى الحصون . . .

وكثيراً ما سمع القائد وجنده عن « البد » الهائل الذى كان فى مدينة « الديبل » بالسند . . . وهو الآن مع جيشه أمام ذلك الصنم الضخم وجهاً لوجه . . . لقد كان « البد » صنما عظيما فى بناء عظيم . . . وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة ، وفى رأس المنارة دقل عظيم . . . وكان ذلك الدقل أو — السارية — يحمل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة فى دورة واسعة فرآها القريب والبعيد .

وحاصر المسلمون المدينة السندية المقدسة ، وطال حصارها والعرب فى وفرة من الزاد والمئونة ، وأهل المدينة على شفا نفاد أقواتهم وأزوادهم .

ورمى الفاتحون العرب سارية « البد » العظيم بحجر ضخم من أحجار «العروس» فكسرت سارية الصنم ، وتمزق اللواء ، و بعثرت الراية الحمراء . . . فتطير أهل السند بذلك ووقع فى نفوسهم رعب شديد ، ودار بين الفريقين قتال أبلى فيه العرب بلاء حسناً ، وقاتلوا مقتلة عظيمة ، واستمرت المعركة حامية الوطيس ثلاثة أيام بلياليها ،لم يطعم الفاتحون فيها سنة من النوم إلا غراراً... واحتل محمد بن القاسم المدينة وأنزلها أربعة آلاف من جيشه البرى .

وسرت فى «السند» أنباء هذه القوة الزاحفة التى لا يقف فى سبيلها سد ولا حصن ، ولا يصدها هول ولا خوف . . . وإنما هى ماضية إلى غايتها كما يمضى السهم إلى هدفه ، فكانت كل مدينة تؤثر الطاعة والتسليم فى سلام وعافية ، وكان ابن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها وصالحه أهلها عليها .

وكان « ذاهر » ملك السند يجمع جموعه و ينظم صفوفه

لكى يلقى المسلمين لقاء يحسب فيه السلامة له ولقومه . وكانت الموقعة قريبا من نهر «مهران». وكان ملك السند على فيل عظيم كعادة أهل تلك البلاد فى قتالهم ، وحوله التكاكرة — وهم قواد السند — واشتد القتال بين الفريقين إلى حد لم يسمع بمثله . ودب اليأس فى قلوب أهل السند ، على حين صابر العرب مصابرة أذهلت أعداءهم . ولم يحن المساء إلا وقد انهزم جيش « ذاهر » ، وسقط ذاهر نفسه من فوق الفيل ، وظل يقاتل حتى قتل

واستمر ابن القاسم ممعناً فى الفتوح حتى دانت له «السند» كلها بلداً إثر بلد ، وما زال كذلك حتى بلغ مدينة «الملتان» ، وكان صنمها معظماً عندهم ، تهوى الأفئدة إليه من كل فج ، وتهدى إليه الأموال ، وتحلق عنده الرءوس واللحى . . . وتقدم له الضحايا . فحاصر المدينة ، وقطع الماء عنها كعادته فى كل حصار ، وقاتل سدنة الصنم العظيم وكان عددهم ستة آلاف . . . وأصاب المسلمون فى هذه المدينة المقدسة ذهباً عظيماً ، قيل إنه ملأ بيتاً طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية .

وكانت هدايا القائد الشاب تتوالى على كبار الأمويين

فى الشام والعراق . . . وأراد أن يطرف ابن عمه «الحجاج» بهدية غريبة، فقدم له فيلا من السند قيل إنه الفيل الذى كان يحارب عليه « ذاهر » ملك البلاد . وأجيز الفيل البطائح فى سفينة ، وأخرج فى مشرعة الماء التى كانت تدعى «مشرعة الفيل» نسبة إليه..

وقد لفتت جواميس السند نظر الفاتح الشاب فبعث بألوف منها إلى «الحجاج»، وهذا بعث منها إلى الوليد بن عبد الملك بأربعة آلاف .

وسقطت أصنام السند صنما إثر صنم ، وكان مقتل «ذاهر» ملك البلاد نهاية عرش الأصنام فى تلك الأصقاع . . .

١٣

الأموى الطريد

لم يشتف الناس وحدهم من الخليفة المصروع ، ولم تكتف الأقدار الساخرة بأن يقطع رأس الخليفة وهو يناجز أعداءه فى قلة من أصحابه الهاربين معه . . . ولكن هرة — لعلها كانت جائعة — نظرت إلى الرأس المجزوز والدم يقطر منه ، فانقضت عليه فى وسط الجماعة التى نفذت القتل ، واقتلعت لسان الخليفة المصروع من رأسه المجتث وأخذت تلوكه وتمضغه وتتلمظ ! وتخرج لسانها وتمسح به شفتيها . . . فلما تبلغت من الزاد الهنىء بلسان خليفة كانت الدنيا تأتمر بأمره ، أخذت طريقها خارج الجمع المحتشد ، ومضت إلى سبيل لها غير معلوم . . .

ليست هذه القصة وحياً من الخيال أو ضرباً من الأوهام ، ولكنها قصة الخليفة المقتول « مروان بن محمد » آخر خلفاء بنى أمية . ولقد حاول هذا الخليفة المغلوب على أمره من رجال الدولة العباسية الناشئة أن يحتال على الأقدار فينجو بنفسه بعد أن فقد عرشه ، وخسر دولته ، التى كانت أول دولة عربية فى الإسلام .

ولكن هل ينفع الحذر من القدر؟ لقد ظلت رجلاه تمعنان في السير وتجدان في الهرب ، وتنتقلان من أرض إلى أرض . . . ولم يدر المسكين أن الأقدار كانت وراءه تطلبه ، وأن الدهر كان وراءه يرصده . . . والدهر لا ملجأ منه ولا هرب . . .

كان مروان بن محمد آخر خليفة أرادته الأقدار للدولة التي أنشأها معاوية الداهية . . . وكان كل شيء في عهده ينذر بأن الأمور تسير في ظلمات ليل بهيم . . . وكانت الأحوال حوله تهدد بأن التاج على مفرقه يكاد أن يتحطم . وكانت حركات دعاة العباسيين وطلائعهم تؤذن بأن العرش الأموي تتزلزل قوائمه ، لكي ينتهي هذا العرش المزعزع إلى بيت جديد . . .

ولقد لقي مروان في أول عهده بالخلافة الأموية عنتا كثيرا في محاربة الخارجين عليه ، المتمردين على خلافته . وكان كما يقول السيوطي — يصل السير بالسير ، ويصبر على مكاره الحرب ، وبلغ من صبره أنهم لقبوه بالحمار ، لأنه يضرب به المثل في الصبر . . .

ولم يرق مروان إلى عرش الخلافة غفلا من التجاريب التي تصهر الملوك . . . ولكن ماذا تنفع التجارب حين تسوء البطانة ،

وتفسد الحاشية ، ويكثر الطمع ، ويتسلط الحقد ، وتغلب شهوة الانتقام ؟

والحق أن الحقد الدنئ بلغ فى الخليفة مروان الحمار أدنأ مراتبه . فحين صار إليه الأمر والنهى فى الخلافة نبش قبر « يزيد الناقص » — وهو الخليفة الأسبق — وآخرج جثة المسكين وصلبه وهو عظام نخرة . . . لأنه كان قد قتل عمه الوليد .

ولعل شهوة الانتقام فى قلب رجل لم تبلغ ما بلغته فى قلب هذا الخليفة ، ومن ذلك الحين لم يهنأ ذلك المسكين بالخلافة لحظة واحدة . . . فخرجت عليه الدنيا من كل جانب . . . واختلفت كلمة الناس فى فتنة جامحة ، فكل يرى رأياً ويذهب مذهباً .

فهذا عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من ولد الإمام على ، يخرج على الخليفة وينادى لنفسه ، فيبايعه قوم ويجتمع حوله خلائق .

وهذا أبو مسلم الخراسانى يظهر الدعوة لبنى العباس بعد أن كانت تدار فى الخفاء ، فيلتف الناس حوله ، ويجتمع إليه كل من له رأى من أهل خراسان . . .

ولقد شهد « نصر بن سيار » أمير خراسان وميض النار بعينيه خلال الرماد . . . فارتاع أى ارتياع ، وكتب إلى الخليفة مروان يقول :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها كلام . . .
فقلت من التعجب : ليت شعرى أأيقاظ أمية أم نيام ؟

واتخذ مروان خطة — حسبها حاسمة — للقضاء على الفتنة الناجمة المنذرة بانهيار عرشه ، فقبض على «إبراهيم الإمام» الذى يدعو العباسيون له ، وحبسه فى مدينة « حران » ، ثم دس له السم وهو محبوس فمات .

ولكن الأمور لم تستقم لعرش تنذر قواعده بالزوال ، فقد التف الناس حول السفاح والمنصور — أخوى الإمام — واجتمع إليهما خلق كثير ، وقويت شوكة الدعاة إلى الدولة الجديدة .

وكان أبو مسلم الخراسانى سريعاً فى خطته لإزالة الحكم الأموى ، فدخل بجنوده الخراسانية على السفاح والمنصور ،

وسلم على الأول بالخلافة . . . فخرج السفاح ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وكبار الشيعة إلى المسجد الجامع ، وأبو مسلم — قائد الانقلاب — بين يديه ، فصعد السفاح المنبر ، وخطب الناس وبويع بالخلافة . . .

وما كان السفاح وحده هو خطيب ذلك اليوم التاريخي المشهود ، فقد خطب بعده عمه « داود بن على » خطبة تزين مصادر التاريخ الأدبي بقوة حجتها ، وبلاغة عبارتها وتأثيرها النفسي في نفوس السامعين ، ومتانة استدلالها على أحقية العباسيين بالخلافة ، لأنهم « أهل نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم » .

ولم يكن بد للدولة الجديدة — بعد البيعة لها — من أن تقاتل الخليفة مروان وتقاتل أنصاره حتى يستقيم الأمر لها . وانتدب لذلك عبد الله بن على بن عباس عم السفاح . فتوجه لقتال الخليفة الأموى مروان ، وتلاقى الجمعان على « نهر الزاب » ، ومع مروان — كما يقدر المؤرخون — مائة وعشرون ألف مقاتل ، ومع قائد العباسيين أقل من ذلك ، وبعد قتال صنع الله فيه للعباسيين أنواع الصنع خذل « مروان الحمار » أشد الخذلان .

وبلغ من خذلان الخليفة الأموى وانفضاض الدنيا من حوله وتأذنها بالانقلاب عليه ، أنه هان على رجاله وحراسه وشرطته ، حتى لقد بلغ به الهوان أنه إذا أمر طائفة من جنده بشيء قالوا له : قل للطائفة الأخرى ! واشتد به الهوان إلى حد أنه قال لصاحب شرطته : انزل إلى الأرض ، فقال : لا والله ! لا ألقى نفسى إلى التهلكة . فتهدده مروان وقال له : لأفعلن بك كذا وكذا . فأجاب صاحب الشرطة : وددت أنك تقدر على ذلك !

ورأى الخليفة أن يشترى حماسة الجنود المخذولين بالذهب ، لعل صفرته تحيي النفوس فى هذا الوقت العصيب . . . فألقى ذهباً كثيراً أمام الناس ونادى فيهم : أيها الناس ! قاتلوا ! وهذا المال لكم ! فامتدت الأيدى إلى الذهب تتناول منه شيئاً شيئاً .

واصطلحت الأقدار على خذلان الخليفة أكثر مما اصطلحت عليه عوامل الضعف فى جيشه . . . فقد قال له بعض الناس إن المقاتلين يأخذون الذهب ، ولا نأمن أن يمضوا به إلى نهاية الصفوف وينصرفوا عن القتال . فأمر ابنه — وهو يحمل الراية —

أن يرجع إلى آخر الصفوف ليعرف الذين أقعدهم الذهب عن القتال فيقتلهم . . . ولكن العسكر حين رأوا ابن الخليفة يرجع ومعه الراية ظنوه ينقهقر ، وشاع الفشل فيهم ، فتنادوا : الهزيمة ! الهزيمة !

وتفرق جيش مروان فلولا هدها الخذلان . ومضى مروان مخذولا يلتمس النجاة ، فلما بلغ « الموصل » قطع أهلها الجسر ومنعوه من العبور وسدوا عليه الطريق .

ورفع أصحاب الخليفة المولى الأدبار أصواتهم قائلين : يا أهل الموصل ! هذا أميرنا وأميركم وأمير المؤمنين يريد العبور ...

وسخر أهل الموصل منهم بجوابهم اللطيف . . . : كذبتم ! فإن أمير المؤمنين لا يفر !

وكان فى أهل الموصل موجدة على الدولة الأموية التى آذنت شمسها بمغيب ، فاتجهوا إلى ركب الخليفة الهارب وقالوا : الحمد لله الذى أزال سلطانكم ، وذهب بدولتكم . . . الحمد لله الذى أتانا بأهل بيت نبينا .

ولم تكن تسبيحة الحمد لله هذه غير النفثة التى يريح بها المصدور نفسه من أحمال عبء ثقيل ، وكانت المتنفس الوحيد

لقوم شهدوا فساد الأمويين وهو يهد كيان المسلمين هداً . فقد ودعوا دهاء معاوية ، وخيرة سليمان بن عبد الملك ، وتقوى عمر بن عبد العزيز ، ليستقبلوا فسق الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وخلاعة أبيه يزيد بن عبد الملك من قبله .

وكره الناس هذا العبث الرخيص الذى ظهر فى أواخر الأمويين . والذى كانت تنذر بوادره بأمر خطير ، فقد أخذ حبل الدولة يضطرب منذ عهد يزيد بن الوليد . وفى عهد أخيه إبراهيم بن الوليد لم تكن الخلافة شيئاً ذا خطر ولا طائل . فقد سلم عليه ناس بالخلافة ، وأنكرها عليه آخرون . . . إلى أن جاء صاحبنا مروان فكان من أمره ومن زوال ملكه وانهيار عرشه ما نحن ذاكروه . . . .

* * *

وهام الخليفة الأموى الطريد شريداً على وجهه ، لا يحمل من قصر الخلافة إلا ما يتبلغ به على الإمعان فى الهرب ، ولم يكن التاج يأتلق على مفرقه ، ولكنه مخبوء فى أحماله التى هرب بها ، لعله يضعه على جبينه مرة ثانية .

فعبر نهر دجلة ، وجاء «حران» ، وأسلمته «حران» إلى مدينة

دمشق ، وهى عاصمة الأمويين ومقر سلطانهم ، فأنكرته العاصمة ولفظته منها ، فولى وجهه شطر « مصر » لعله يجد فيها أمناً ، أو يلتمس فيها مقاماً ، أو تقام له فيها دعوة . . .

ولم تغفل عين العباسيين وعلى رأسهم الخليفة الأول السفاح عن متابعة الخليفة الأموى الهارب ومطاردته ، وتولى هذا العمل صالح بن على العباسى . . . . فجد صالح فى طلب مروان وتعقبه ، وكان الخليفة الهارب كلما حل ببقعة أحرق علف خيله وهو يتركها ، حتى لا يدل عليه العيون .

وما زال التوجس والخوف يخلعان قلب الخليفة المهزوم ، وهو لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى بقية من أعوانه وبطانته الذين خاضوا معه كل خوض . . . وكان « أبو عون » رجلا من رجال صالح بن على المكلفين القبض على الخليفة المطرود . . . ولقى أبو عون ورجاله خيلا لمروان فأسروا رجالها ، وقتلوا بعضاً واستحيوا بعضا . . . وسألوهم عن مختبأ مروان . . .

وهنا كان الوفاء قد عيل صبره مع هؤلاء الأتباع ، وأحبوا أن يضمنوا حياتهم ويؤثروها على حياة مولاهم الهارب . . .

فدلوا رجال العباسيين على مكمنه ، وأحلوا أنفسهم من

تبعات الولاء لسيدهم القديم . . . طلباً للخلاص ، وإيثاراً للعافية . . .

وسار أبو عون إلى مخبأ الخليفة المنكود ، فألفوه نازلا فى كنيسة بقرية « بوصير » من أعمال الجيزة .

وخشى أصحاب أبو عون – وهم قلة – أن يعلم مروان وأصحابه بمجيئهم – وهم كثرة – فيقتلوهم . فلم ينم الطالبون ليلتهم وكسروا أغماد سيوفهم ، حتى لا تقر فى الأجفان إلا بعد قتال مروان . . .

وحمل رجل من المتعقبين على مروان فطعنه ، وهو لا يعرفه ، فلم تسمع إلا صيحة صائح يقول : صرع أمير المؤمنين !

وأراد كوفى أن يشفى غلته من الخليفة المطعون ، فاحتز رأسه احتزازاً ، وبقى آخر الأمويين على أرض صعيد مصر جثة بلا رأس . . .

وحمل الرأس إلى صالح بن على حيث جاءت هرة واقتلعت لسان أمير المؤمنين ، وأخذت تمضغه وتلتذ طعمه ، وهى لا تدرى أن هذا اللسان طالما نطقت به أقدار ، ودار به الأمر والنهى كل مدار . . .

وكان رأس مروان ، ودمه المطلول ، ولسانه المأكول بعض الشفاء لغيظ أبى العباس السفاح . الذى سجد شكراً لله حين رفع إليه رأس مروان . . . فقد رفع رأسه وقال . . .

الحمد لله الذى أظهرنى عليك ، وأظفرنى بك . وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم ولا دماؤهمو للغيظ ترويني

عرش بغداد

لعل شهوة الغضب لم تبلغ من مخرب ظافر ما بلغته من نفس « هولاكو » سلطان التتار ، الذى صب جام غضبه على « الخليفة المستعصم » آخر خلفاء العباسيين ، فأمر بأن يقتل قتلة لم تعرفها مصارع الخلفاء ، ولا مقاتل السلاطين . . .

إن السيف لم يجتز رأس الخليفة المستعصم ، ولم تصبه وهو أسير فى يد الأعداء طعنة من رمح ، أو ضربة من خنجر ، أو رمية من سهم مريش . . .

لقد أمر طاغية التتار « هولاكو » بأن يقتل الخليفة المستسلم قتلة لا يراق فيها دم ، ولا يسيل منها نجيع . . . لقد جرد حفيد العباس عم النبى عليه السلام من ثيابه الزاهية المزركشة الموشاة بالذهب ، المرصعة باللآلىء ، كما انتزع التاج المؤتلق من فوق جبينه المهزوم ، لكى يوضع فى غرارة — أى زكيبة — ويربط عنقها على رأسه ، ويظل يركل بالأيدى ، ويرفس بالأرجل ، فتتلقفه أقدام الطغاة من التتار كالكرة بين

الصوالجة وهى تقذفها من يد إلى يد ؛ أو ككرة القدم تنتقل من رجل إلى رجل ، حتى يموت على أبشع حال . . . .

ونفذت مشيئة الطاغية الجبار « هولاكو » ، وصنع بالخليفة المخلوع المهزوم ما لا يليق بكرامة رجل كانت دنيا المسلمين تعج بذكره ، وكانت منابر المسلمين يرتفع فيها الدعاء له ، ويخطب فوقها باسمه ، وكان الوصول إليه أو الوقوف بين يديه أمراً من الأمر ، يحتاج إلى الوقوف بالأبواب ، واستئذان الحجاب . . .

إن مقتل هذا الخليفة الوديع الضعيف على هذه الصورة فى يوم الأربعاء ١٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ ليثير فينا وفى كل إنسان أبلغ آيات السخط على التتر ، الذين لم تقف جرائمهم عند قتل النفوس وإزهاق الأرواح ، وإبادة المعالم ، وإشاعة المظالم ، ولكنهم أزالوا الخلافة العباسية كلها من الوجود ، ومحوا فى لحظات قصار حالكة السواد دولة إسلامية ، بعد أن ظلت تحكم العالم الإسلامى أكثر من خمسمائة من السنين . . .

ولكن هذا المصير المشئوم للدولة العباسية كان أمراً لا مفر منه ولا محيص عنه . . . فقد مضت الأيام الأولى بروعتها ومجدها

وانتصاراتها وعوامل الإصلاح فيها . . . وذهبت أيام المنصور ، والرشيد ، والمأمون بجلال أقدارها ، وعظمة حوادثها ، وعزة الدولة فيها ، لتحل محلها أيام هزيلة ضئيلة يهون فيها السلطان ، ويتضاءل فيها الخلفاء ، وتقوم فيها الدسائس ، ويتحكم فيها الأجانب فى قصور الملوك ، ويسود فيها الرومى والزنجى والصقلبى وكل أفاق دساس . . . وتقوم فيها للجوارى والمغنيات والخدايا دولة داخل الدولة ، فإذا الخليفة مسمول ، أو معزول ، أو مقتول . . .

ولما هانت الخلافة هانت الوزارة تبعاً لها ، وهنا انصرف الخلفاء عن اختيار الأصلح للوزارة إلى من يغلى الثمن لهم فى طلبها . . . حتى لقد وصل « ظهير الدين بن العطار » إلى الوزارة للخليفة المستضىء لأنه كان تاجراً ، وكان يغدق الأموال على هذا الخليفة الذى كان يحب الذهب حباً جماً . . .

ولقد طال الزمن بالدولة العباسية خمسة قرون ، إلا أن نهايتها المحزنة كانت أمراً متوقعاً ما بين يوم ويوم ، فقد اصطلحت عليها عوامل الضعف والفساد والانحلال . . . ووقف الطامعون فيها بالمرصاد ينتظرون الساعة المحتومة ، إلى أن جاءت موجة التتار تكتسح العالم غرباً ، فوجدت فى طريقها كتلة منحلة

الأجزاء . . فلم تر كبير عناء فى القضاء عليها ومحو آثارها . . .
وكان التتر — على قساوتهم ووحشيتهم وتخريبهم — جماعة عسكرية منظمة محددة الأهداف ، يقول فيهم المؤرخ الموفق عبد اللطيف إنهم : (تصل إليهم أخبار الأمم ، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم . . . وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم ، لأن الغريب لا يتشبه بهم . . وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ، ونهضوا دفعة واحدة ، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه ، ولا عسكر حتى يخالطوه . . . فلهذا تفسد على الناس وجوه الحيل ، وتضيق طرق الهرب . . . ونساؤهم يقاتلن كرجالهم . . . وليس فى قتلهم استثناء ولا إبقاء . . يقتلون الرجال والنساء والأطفال . وكان قصدهم إفناء النوع . وإبادة العالم ، لا قصد الملك والمال)

وأيا ما كان قصد التتار فقد كان شهر المحرم من سنة ٦٥٦هـ نذيرا لعرش العباسيين بخطر عظيم . ولكن هل تنبه الخليفة المستعصم بالله إلى هذا الخطر الذى كان يلوح كالنار بين الرماد ؟ لقد كانت الأراجيف والشائعات تسرى فى أحياء بغداد بأن عسكر المغول يزحفون على عاصمة العباسيين بقيادة هولاكو . . . ولكن ذلك — كما يقول مؤرخ معاصر للحوادث —

لم يحرك من الخليفة عزماً ، ولا نبه منه همة ،ولا أحدث عنده هما .

والحق أن المستعصم كان رجلا مسالماً ، غمرا ، خفيف الوطأة بعيد المستفز . . . بطىء التحرك . . . لا يستفزه نبأ ، ولا يستخفه خبر . . . وقد بلغ من غفلته عن أحوال مملكته أن المؤرخ صاحب كتاب « الفخرى » قال فيه : إنه كان قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه ، غير مهيب فى النفوس ، ولا مطلع على حقائق الأمور . . .

لقد كانت عساكر المغول تزحف من قلب آسيا متجهة نحو الغرب كأنها ذرات من الرمل لا عدد لها . . . وكانت رسل هولاكو وعيونه يدخلون الممالك الإسلامية يستطلعون أحوالها ، ويتجسسون عليها ، ويسبرون أغوارها . وكان عيون المغول يدخلون البلاد على هيئة التجار ، حتى لا يشك فيهم أحد فيطلعون سلطان المغول على أحوال البلاد أولا بأول . . . فإذا جاء الخليفة العباسى نبأ بتقدم المغول مال إلى عدم تصديقه ، وأعرض عنه جانباً ، لأنه كان متشاغلا — فوق ضعفه وفسولة رأيه — بسماع الأغانى ورؤية المساخر والمضاحك التى تدخل السرور إلى قلبه .

ولم يدر أنه كان بهذا الغ حك المجاوب يرمى بنفسه وبأسرته وبمملكته إلى أعقاب بكاء طويل مرير . . .

وتتهم بعض الروايات « مؤيد الدين بن العلقمى » وزير الخليفة المستعصم بأنه كان مخامراً مع التتار ، بل يذهب بعضها إلى اتهام هذا الوزير بأنه هو الذى دعا التتار إلى بغداد لكى يخلص من العباسيين ، لأنه كان شيعياً ، والشيعيون مضطهدون من أهل السنة الذين كان العباسيون يساعدونهم . . . وهى تهمة وجدت من المؤرخ « ابن طباطبا » دفاعاً قوياً ، حيث بقى ابن العلقمى محكماً مكرماً فى عهد هولاكو وبعد سقوط بغداد ، فلو كان هذا الوزير خائناً أو مخامراً لقتله قائد التتار ، ولما وقع منه الوثوق به ، والاطمئنان إليه . . .

ومهما يكن من أمر فقد وصل التتار إلى بغداد أو إلى مقربة منها على الأصح . . . وانقسموا فرقتين : فرقة تدخلها من الشرق وعلى رأسها «هولاكو» ، وفرقة من الغرب وعلى رأسها «باجو». ورأى الناس التتر يطبقون عليهم ، فوقع الذعر فيهم إلى حد جعلهم يرمون بأنفسهم فى مياه النهر والنهيرات القريبة منه . وازدحم الناس على عبور النهر فراراً بأرواحهم ، حتى ضاقت بهم الزوارق

والمراكب والألواح ، وارتفع سعر العبور حتى كان الملاح يأخذ أجرته سواراً من الذهب ، أو طرازاً من الزركش ، أو عدة من الدنانير . ولم يضن الناس فى سبيل اجتياز النهر بمكنون التلاد .

وفى الجانب الغربى التقى عسكر من التتار مع عسكر الخليفة بقيادة « مجاهد الدين الدويدار » . وكان عسكر بغداد فى غاية القلة ، فشبع فيهم التتار قتلا وأسراً ، ومن نجا من هذين لم يسلم من الوحول التى كانت فى الطريق — طريق العباسيين المنهزمين .

وكان الخليفة فى خلال معركة الجانب الغربى من بغداد جالساً فى قصره يتسلى بمشاهد لهو برىء . . . كأن الجائحة بعيدة عنه . واحتل التتار الجانب الغربى من العاصمة المشرفة على السقوط بعد أن خلا من أهله ، وأخذوا يرمون بالنشاب إلى الجانب الشرقى .

وكان هدف الرماة أن يوجهوا سهامهم إلى قصر الخليفة ليثيروا الرعب فيه فيستسلم . . . وكان الخليفة — كما يروى ابن الفوطى معاصر الحادثة — جالساً فى أحد أروقة القصر ، وبين يديه جارية صغيرة من مولدات العرب تسمى « عرفة » . . . وكان فيها ظرف ودلال وطبيعة مضحكة . . . وكان الخليفة الغافل يأنس بمجلسها ومضاحكها . . . فأصابها سهم دخل من

بعض الشبابيك فقتلها ، فانزعج الخليفة لمقتلها . . . ولعله انزعج لها أكثر مما انزعج لغارات التتار ! . وأمر أن يحضر السهم النافذ المصيب بين يديه ، فإذا هو مكتوب عليه : إذا أراد الله أن ينفذ قضاءه سلب ذوى العقول عقولهم . . . وأمر الخليفة فى الحال أن تعمل ستائر وسدادات من ألواح الخشب ، لتحول بين شبابيك القصر و بين الرماة . . .

وأراد الله أن يتم مشيئته فى الخليفة وأهل بيته ، فضغط هولاكو بجيشه الجرار من ناحية الشرق ، وأعد عدة الحصار ، وكان الخليفة قد أمر بإقفال أبواب المدينة وإحكام الأسوار . . . ولكن ماذا ينفع هذا أمام سيل جارف من محاربين أشداء ؟

واضطر الخليفة أن يخرج من قصره المنهار ليسلم بالطاعة والتسليم لسلطان المغول ، ودخلت عساكر المغول المدينة فنهبتها نهباً ، وأشاعت الرعب فى نفوس ما بقى من أهلها ، حتى لقد قيل إن كثيراً من نفائس التراث الفكرى الإسلامى لم يسلم من الحريق أو من الغرق فى مياه دجلة .

وقيل للخليفة المهزوم إن هولاكو يرغب أن يزوج ابنته بابنك . . وأن يبقيك فى منصب الخلافة على أن تكون عليك

الطاعة له ، كما كان أجدادك من العباسيين مع سلاطين السلاجقة ... وأنزل الخليفة فى سرادق عند « باب كلواذى » من أبواب بغداد ، واستدعى القواد والعظماء والعلماء ليحضروا العقد ... فكانت كل طائفة تخرج تضرب أعناقها ... وهكذا تم للمغول التخلص من أهل السيادة والعلم والمثالة فى الدولة الزائلة . . .

وأخرج الخليفة فى ذلك اليوم العصيب أثمن ذخائر القصر وأنفس أعلاقه ، فكان من الأموال والجواهر والحلى والزركش وأوانى الذهب والفضة جملة عظيمة ، ولم يدر أنه كان يخرجها لكى يبتلعها بحر الغزاة كما ابتلعوا مملكة إسلامية بجملتها .

ولما تخلص هولاكو من رجال الدولة الفانية ، واستولى على كثير من أموالها ونفائسها ، وجرد الخليفة الضعيف من كل شىء يملكه أمر به أن يقتل ، وأن لا تراق فى قتله قطرة دم . . . فوضع فى غرارة ، وظل يركل ويرفس حتى مات .

ويقال إنهم ضنوا على جثته أن تضمها صفائح قبر ، أو تخط لها حفرة فى مضجع أبدى هادئ ، فتركوها فى العراء كهشيم تذروه الرياح . . .

ولله عاقبة الأمور

ملك ينتحر غرقاً
بعد ضياع مملكته

هناك على ضفة نهر من أنهار الأندلس وجد القوط المهزمون، بعد انجلاء المعركة، جواداً وثياباً وعدة من السلاح عرفوا أنها لملكهم المهزوم على يد «طارق بن زياد» . فأيقنوا أن سيدهم ورب التاج فى بلادهم قد ألقى بنفسه فى النهر المتدفق، فراراً من عار الهزيمة التى لحقته على يد العرب الفاتحين . ولم يوقف للملك الغريق على أثر ، فقد حملته مياه النهر فى اندفاعها صوب المحيط . . .

ويقول نفر من المؤرخين إن الملك « رذريق » ملك الأندلس القديمة المدبرة ، قد لقى مصرعه بعد معركة حامية ، بضربة من سيف طارق بن زياد، أهوى بها البطل الفاتح على رأسه فخر صريعاً .

وأياما كان الأمر فقد انتهت بانتحار « رذريق » أو بمصرعه دولة القوط فى الأندلس ، وهوى عرش قديم، ليحل محله عرش

عربى إسلامى جديد . . .

ولقد دخلت الهزيمة على «رذريق» من ناحية نفر من أمراء القوط الذين كانوا على ولاء لمدينة « طليطلة » عاصمة ذلك الملك الغشوم . . . فأنهم خامروا عليه ، ودلوا العرب الفاتحين على عوراته ، حتى عبروا إليه البحر من شمالى أفريقية . وسدوا عليه منافذ السبل ، وقاتلوه وأصاروا عرشه إلى أسوأ مصير . . .

ولم يكن «رذريق» غير واحد من ملوك القوط بالأندلس الذين ساموا أهلها الخسف وسوء العذاب . ولم يكن حكم القوط لتلك البلاد ثلاثة قرون — من الخامس إلى السابع المسيحى — إلا امتداداً لطغيان الحكم الرومانى الذى كان يسود البلاد قبل ذلك . . .

وأهمل ملوك القوط — فى الثلاثة القرون التى ملكوها . شئون الشعب إهمالا ليس له نظير . . . فأعادوا الظلم الرومانى على أبشع صورة ، وقسموا الناس إلى طبقات ثلاث : طبقة الرقيق الذين لم يزيدوا على أن يكونوا سوائم تمشى على اثنين . . . وقد فقدوا كل حق فى الحرية والاختيار . . . حتى لم يكن أحدهم ليستطيع الزواج إلا بأمر سيده . . . والطبقة الثانية

هى الطبقة المتوسطة . . . ولم يكونوا بأسعد حالا من إخوانهم رقيق الأرض ، فقد جردهم ملوك القوط من أموالهم وقليل عقارهم ، وفاء للضرائب الفادحة التى كانت تثقل ظهورهم وتعيي كواهلهم . . . وكان القليل الذى بأيديهم غرضة للمصادرة والضياع والانتهاب . . . .

أما الطبقة الثالثة فتجمع فى إطارها الظالم الغاشم رجال الكنيسة وكبار الملاك والأشراف الذين خصتهم الأقدار السعيدة بشرف المنابت . . . . وهو شرف ليس للمرء فيه خيار . . .

وظلت طريق الملوك الطغاة تسير بهم من جيل إلى جيل ، ولا أمل فى إصلاح ، ولا رجاء فى تحسين . . . إلى أن انتهى عرش هذه المملكة إلى الملك « غيطشة » الذى سام الشعب الأسبانى ألواناً من الخسف ، وأذاقه كئوساً من العذاب .

ولم يكن عند أهل الأندلس من القوة الروحية ما يصرفون به هذه الطاغية عن طغيانه . . . فقد قلم الظلم أظفارهم ، وأخمد البغى أنفاسهم فلم يستطيعوا حراكاً . . .

ولكن الثورة على الملك « غيطشة » لم تأته من ناحية الشعب

المحطم المقصوص الجناح . . . وإنما أتته من ناحية شريف من الأشراف اسمه « رذريق » اغتصب الملك من « غيطسة » وانتزع التاج من فوق رأسه، لكى يضعه على رأسه باسم الملك «ويتيزا» ، أو رذريق كما يسميه العرب فى تواريخهم . . .

ولم يشعر أهل الأندلس القدماء بكبير فرق بين عهد غيطسة وعهد رذريق . . . . فقد بقيت الأمور على حالها من الفساد والفوضى . . . . ولم يكن الإصلاح الذى يدعو إليه الملك المغتصب الجديد إلا ذرا للرماد فى العيون. ولم يكن اعتداله فى سيرته إلا فى الأيام الأولى من ملكه . . . ولكنه بعد ذلك انغمس فى الترف ، وأغرق نفسه فى اللذائذ ، واستسلم لصرخات الشهوة العارمة التى كانت تعتلج فى صدره . . .

وكان من عادة أشراف البلاد فى تلك الأيام أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى القصر الملكى بطليطلة ، ليتلقوا عنه أصول التربية الملكية الرفيعة ، وليعرفوا التقاليد والمراسم التى تفصل بينهم وبين أبناء الشعب بحاجز منيع . . . ولينشأوا نشأة حسنة يعودون بها إلى قصور آبائهم وقد حذقوا ثقافة البلاط ، وأتقنوا القصور . . .

وكانت للملك المعزول « غيطسة » حفيدة تدعى « فلورندة » . فهى بنت ابنته . وأبوها « يوليان » حاكم مقاطعة كيوتا ، وكانت على جانب كبير من الجمال الفتان .

وأرسلت الفتاة الجميلة « فلورندة » إلى بلاط طليطلة على عادة ذلك الزمان ، وأنبتها قصر « رذريق » نباتاً حسناً . . . وما زالت تحظى بالرضى فى البلاط حتى كانت وصيفة للملكة ؛ وهنا وقعت عين الملك عليها فوقعت من نفسه أجمل وقع . وأخذه جمالها وفتنتها ، فأضمر فى نفسه أمراً . . .

ونسى الملك أن هذه الوصيفة الفاتنة ليست إلا وديعة لديه ، وأمانة فى عنقه ؛ ونسى أنها إنما جىء بها إلى القصر لتتلقى قواعد القصور على وجهها الصحيح . . . ونسى أنها لم يبعث بها أبوها الكونت يوليان لكى تكون دمية يتلهى بها الملك ، ويرضى بها أحط غرائزه . . .

وفى لحظة من لحظات الشهوة العارمة اعتدى الملك « رذريق » على الفتاة الشريفة العذراء . . . . ولم تجد تلك المخلوقة الضعيفة سبيلا إلى مقاومة ملك معتد أثيم . . .

وأخبرت «فلورندة» أباها بما حدث من اعتداء الملك عليها ،

فأضمر في نفسه شراً للملك ، وأعد عدته للانتقام للشرف المثلوم . . .

والتجأ «رذريق» إلى « يوليان » ليعينه على مقاتلة العرب في شمالى أفريقية ، وأمده بالسلاح والعتاد ليقف مطامع العرب لو حدثتهم أنفسهم باجتياز البحر إلى الأندلس ، ونسي « رذريق » أنه يطلب العون من عدو موتور . . .

وأضمر يوليان في نفسه الانتقام من الملك المعتدى على ابنته ، ورأى أن يعين العرب عليه فيما لو هموا بغزو الأندلس وأن يدلهم على مواقعه وعوراته .

فلما ودع الملك يوليان عند انصرافه من حضرته طلب منه أن يهدى إليه صقورا من التي كان يوليان يهوى تربيتها ، فأجابه يوليان : سآتيك بصقور لم ترها من قبل . . . .

. . .

لم يكن «يوليان» إلا مضمراً في نفسه أمراً جليلا حين أجاب «رذريق» بهذا الجواب . . . ولم تكن الصقور التي يعنيها غير صقور العرب الذين نوى يوليان - إطفاء لشهوة الانتقام عنده من رذريق — أن يدلهم على منافذ الأندلس ومسالكها ،

ليذهبوا فى جموعهم من شمالى أفريقية إلى شبه الجزيرة الأندلسية وليحطموا عرش « رذريق » أعدى أعدائه . . .

وكان يوليان يرجو أن يقتل عدوه رذريق على يد العرب المتوثبين إلى الفتح . . . وأن يكتفى العرب بما تصل إليه أيديهم من أسلاب وغنائم ، ثم يعودوا إلى بلاد المغرب ، ويعود تاج الأندلس إلى أولاد الملك المخلوع « غيطسة » والد زوجته .

ونسى « يوليان » أن العرب كانوا أسمى نفساً وأكرم طبعاً وأعلى غاية من أن يكتفوا من الغارة على الأندلس بأسلاب رخيصة تافهة مهما غلت قيمتها . ونسى فوق ذلك أن العرب لم يكونوا ليجشموا أنفسهم عناء الرحلة إلى الأندلس لو كان أقصى همهم أن يكونوا أداة لانتقام أمير من ملك فى قضية لا ناقة لهم فيها ولا جمل . . . فإن العرب كانت لهم همم لا منتهى لكبارها . . . وكانت أصغر هممهم - لولا المبالغة — أجل من الدهر كما يقول الشاعر .

نسى «يوليان» ذلك ، وظن أن العرب تهون الفتوح عندهم هذا الهوان المزرى . الذى لم يكن يقوم إلا فى خياله المريض ، ولعله حسب أنهم خرجوا من أقصى الأرض فى شبه جزيرة

العرب ، وبلغ بهم الانسياح فى الأرض الواسعة إلى هذا الحد لكى يخرجوا مختارين من بلاد الأندلس إذا ما دخلوها فاتحين .

ومهما يكن من الأمانى العراض التى علل بها يوليان نفسه ، فقد التقى مع موسى بن نصير فى بلاد المغرب وعقد معه صلحاً ، واتفقا على العمل معاً لمقاتلة « رذريق » فى الأندلس ذاتها .

وأخذ موسى بن نصير يستطلع أحوال البلاد من هذا الشريف الموتور . . . فأطنب يوليان فى وصفها ، وعرض أمام الأمير العربى لوحة فاتنة لهذا الفردوس المطل على بحر الروم ... فوصف أنهاره الجارية ، ووديانه الفاتنة ، وأرضه الخصيبة الممرعة ، وخيراته الكثيرة ، ومدنه الجميلة ؛ وكشف له عن حالة البلاد ، وتذمر الطبقات ، وضعف الملوك ، ومنافسة الأمراء . . . وهون عليه أمر فتحها بأن ذلك مطلب يسير المنال . . . وأنه على تمام الأهبة ليمده بالسفن التى يجتاز بها البحر لنقل جنده إلى البلاد ، وأنه سيزوده بالرجال الخبراء الذين يعرفون مسالك الأرض وطرقها ، ويكشفون للجيش عن وعورها وسهولها ، حتى يستطيع جيش الفتح أن يصرف أموره ويحمى ظهوره . . .

وتحرق قلب ابن نصير شوقاً إلى هذه البقاع التى وصفها يوليان . وكاد يطير إليها لو يطار إلى الأوطار بلا جناح . . . لولا أنه على عادته كاتب الخليفة الوليد بن عبد الملك يستشيره فيما عرضه عليه «يوليان» ويستأذنه فى الذهاب إلى هذا الهدف الجليل .

وكان الوليد بن عبد الملك أحرص من أن يندفع فى الرد بإجازة الخروج إلى الأندلس عن غير سابقة من الخبرة . . . فكتب إلى موسى بن نصير يقول : خضها بالسرايا ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال . . . .

وكان البحر دائماً هو أخوف ما يخافه العرب فى غزواتهم وفتوحاتهم : ألم يصفه أحد القواد للخليفة عمر قائلا : خلق كبير عليه خلق صغير . . . وهم فيه كدود على عود . . . فقال عمر : والله لا أركبت فيه مسلماً أبداً ؟

ولكن موسى بن نصير طمأن الخليفة الوليد حين كتب إليه بأن البحر الذى يجتازه العابر إلى بلاد الأندلس ليس ببحر متسع ، وإنما هو خليج يبين ما وراءه . . . فكتب إليه الخليفة : اختبرها بالسرايا ولو كان الأمر على ما حكيت . . .

فبعث موسى بن نصير رجلا من مواليه يقال له « طريف »

فى خمسمائة من الرجال ما بين راجل وفارس ، وأنزلهم فى أربع سفائن ، وأغار على الجزيرة الخضراء فأصاب منها مغانم كثيرة ، ورجع سالماً هو ورجاله فى شهر رمضان سنة إحدى وتسعين من الهجرة . . .

فلما رأى الناس ذلك رأى العين اطمأنت نفوسهم للغزو وخفوا إليه سراعاً . . .

ودعا موسى بن نصير مولى له من أشجع رجاله وأصبرهم على القتال،وأجرأهم فى الميدان اسمه «طارق بن زياد» فبعثه فى سبعة آلاف مسلم أكثرهم من الموالى والبربر ، وأقلهم من العرب ، فساروا فى البحر حتى لاح لهم من بعيد جبل يطل على البحر وهو متصل بالبر ،فنزلوه وسمى جبل طارق ، ولا يزال يحمل هذا الاسم الكريم إلى اليوم .

وشاء الله أن يقترن اسم هذا الجبل باسم القائد الفاتح ابن زياد، وأن يظل على المدى يحمل أجمل تذكار لأطيب مناسبة فى تاريخ الفتوح العربية الإسلامية . وقد حاول الملك عبد المؤمن ملك الموحدين حين ملك الأندلس أن يغير اسم هذا الجبل إلى «جبل الفتح» ، وجرى الاسم الجديد على الألسنة

أياماً قصاراً . ولكنه لم يثبت وعاد إلى الجبل اسمه الذى يخلد على الزمان ذكر ذلك القائد العظيم .

وعلم رذريق باقتحام المسلمين معقله الذى كان يظنه فى منعة العقاب ، فاغتاظ غيظاً شديداً ، وجمع جموعه حتى بلغت فى تقادير بعض المؤرخين مائة ألف مقاتل . . . وهى كثرة تكفى لسحق السبعة الآلاف من المسلمين الفاتحين . فكتب طارق إلى موسى بن نصير يطلب منه المدد ليستطيع أن يثبت أمام هذه الكثرة الكاثرة ، فأمده موسى بخمسة آلاف من المسلمين ، وبهذا بلغت جموع العرب اثنى عشر ألفاً .

وكان مع المسلمين «يوليان» عدو «رذريق» ، يدلهم على عورات القوط ، ويتجسس لهم الأخبار ، ويخذل عنهم فى صفوف أهل الأندلس . والتقى الجمعان غير المتكافئين فى العدد والعدة على نهر « لكة » من أعمال مقاطعة « شذونة » ، وكان ذلك فى أخريات شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين من الهجرة .

ولم ينفع جيش رذريق كثرته ولا عدته ، فقد كانت عوامل الضعف تسرى فيه ، وتمشى بين صفوفه المتخاذلة . . . وكان أبناء الملوك يحاربون عن يمين رذريق ويساره فى غير همة

ولا حماسة ولا صدق فى القتال . فقد كان رذريق واترا لأكثرهم ، أو مغتصباً لآبائهم ، أو معتدياً عليهم . ومن هنا جاءت الهزيمة إليه ، وأسرع الخذلان إلى جيشه .

وشاء الله أن يحقق صادق وعده بأن تغلب الفئة القليلة المؤمنة الصابرة الفئة الكثيرة الباغية ، والله مع الصابرين .

وهزم « رذريق » ومن معه من الآلاف المؤلفة .

وانجلت غيابة هذه الموقعة الطحون عن هزيمة القوط هزيمة منكرة ، وانتصار العرب انتصاراً مؤزراً .

واستدار أتباع الملك المهزوم ليبحثوا عنه فى غبار المعركة ، فإذا هم يجدون جواده وبعض ثيابه على ضفة النهر ، فأيقنوا أن ملكهم قد ابتلعه اليم وأخذه التيار إلى مصب النهر فى المحيط ؛ وأشيع يومئذ أن الملك المهزوم لم يطق الهزيمة فألقى بنفسه فى أحضان النهر . وسجلت بعض الكتب هذه الرواية التى تقابلها رواية أخرى بأن «رذريق» قتل بضربة من سيف طارق بن زياد البطل المشيح . . . .

وهوى تاج دولة القوط فى الأندلس ، ليأتلق مكانه على جبين الدهر تاج من أكرم ما صاغته عزائم المسلمين الفاتحين .

رؤيا تنذر بزوال دولة

في السنة العاشرة من خلافة « العاضد » آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ، استسلم ذلك الخليفة الشاب السخى الجواد إلى نوم عميق ، فرأى فيما يراه النائم أن عقرباً خرجت من مسجد بمصر يعرفه ذلك الخليفة ، ولدغته . . . وقطع ذلك الحلم الرعيب على الخليفة الشاب لذاذات نومه الهنيء ، فاستيقظ مذعوراً ، وخشي أن يكون ذلك الحلم نذيراً بما يدبر له من حوله ، وخصوصاً بعد حريق الفسطاط الهائل الذى أحدثه الوزير « شاور » ، حتى لا تقع المدينة فى أيدى الصليبيين .

واستدعى الخليفة الفاطمى الشاب أكبر مفسرى الأحلام فى عصره ، ليفتوه فى الرؤيا التى أقضت عليه مضاجعه ، فأفتى أحدهم بأن شراً سيصل إلى الخليفة عن يد شخص بذلك المسجد .

وتساءل الخليفة الرابع عشر من خلفاء الفاطميين : من يكون ذلك الشخص المقيم بذلك المسجد المرئى فى الأحلام حتى

يصل إلى منه الأذى ؟ فلا كنت إذن وارث خلافة « المهدى » الفاطمى ، ولا حفيد الفاتح « المعز » إن لم أقبض على ذلك الشخص الشرير الذى تسول له نفسه أمراً يصل به إلى هيبة مقامى ، وجلال سلطانى !

وأصدر الخليفة العاضد — وهو فى فورة الغضب والذعر من تلك الرؤيا المفزعة — أمره إلى والى مدينة القاهرة بأن يحضر له الشرطة كل من يصادفونه فى ذلك المسجد . فأحضروا له شخصاً عليه ثياب المتصوفة ، وملامح الزهاد ، وأمارات النساك يقال له « نجم الدين الخبوشانى » . فسأله الخليفة عن مقدمه ، وعن سبب مقامه بالمسجد ، واستخبره عن أمور لعلها تكشف النقاب عن حقيقة أمره ! فأخبره ذلك المتصوف بالخبر الصحيح ، لم يخرم منه حرفاً ، ولم يغير منه وصفاً . فرأى الخليفة المتوجس آيات الصدق على ملامح الرجل وأقواله . ورآه أضعف من أن يناله بشر ، أو يمسه بسوء . . . فوصله بمال ، وصرفه ، وقال له : ادع لنا يا شيخ !

* * *

ولم يمض على تلك الرؤيا المفزعة بضعة عشر شهرا حتى

شاء الله أن يتحقق ذلك الحلم الذى رآه الخليفة ، وأن تقع الحقيقة بما عبر به المفسرون لتلك الرؤيا . . . وأن يكون ذلك الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشانى » هو بعينه الذى يصل منه الأذى إلى الخليفة الفاطمى « العاضد » . . . فإن السلطان « صلاح الدين الأيوبى » الذى أزال دولة الفاطميين وقوض عرشهم كان قد استفتى جماعة من الفقهاء فى أمر مصادرة أموال الفواطم والقبض عليهم ، وإزالة الخلافة من أيديهم ، وكان الشيخ المتصوف « نجم الدين الخويشانى » من جملة الفقهاء الذين أخذ رأيهم . . . فبالغ فى الفتيا . . وصرح بتعديد مساوئ الفاطميين ، وأحل أهل مصر من واجب الطاعة لهم ، وأطال الكلام فى ذلك إطالة كانت من جملة الأسباب التى حملت « صلاح الدين » على التخلص منهم . وبذلك صحت تلك الرؤيا المفزعة التى رآها الخليفة « العاضد » منذ بضعة عشر شهراً . . .

* * *

وقد شاء الله أن يتهاوى التاج من فوق رأس الخليفة الفاطمى العاضد وهو مريض يعانى أوجع الآلام ، فلم يعلم بأن الخطبة على المنابر قد قطعت باسمه ، ولم يدر – وهو فى سكرات النزع

الأخير — أن الخلافة الفاطمية بجلالها وسلطانها ومظاهر الترف البالغ المحيط بها قد ذهبت عنه ، بل ذهبت عن مصر الفاطمية لتعود ثانية إلى بغداد ، وليخطب على أعواد المنابر فى الدولة الأيوبية باسم الخليفة « المستضىء بالله العباسى » فى السابع من محرم سنة ٥٦٧ هـ .

على أن المؤرخ ابن إياس يذكر بأن « العاضد » قد أعلم بخبر قطع الخطبة عن اسمه، فحصل له من ذلك « قهر عظيم » . وصار مع « صلاح الدين » كالمحجور عليه ، لا يتصرف فى أمر إلا بمشورته ، ولا يبرم عملا إلا بعد عرضه عليه . فلم يطق الخليفة العاضد ذلك الحجر الثقيل الذى لم يتعوده أحد عشر عاماً ، ولم يتحمل أن يكون أداة أو لعبة فى يد البطل الفاتح صلاح الدين . . . فقيل إنه ابتلع فص ألماس ، فمات من يومه.

وهكذا يروى « ابن إياس » مصرع الخليفة الفاطمى الشاب الذى مات وهو فى الحادية والعشرين من عمره .

وأيا ما كانت الموتة التى لقى عليها « العاضد » ربه فإن من المحقق أن المرض قد أوهاه إلى حد أثار عليه إشفاق « صلاح الدين » نفسه ، حتى لقد ضعفت قواه ، وتخاذلت أعضاؤه .

وفشت الحمى بأعضائه فشوا بالغاً . ويئس طبيبه الخاص « ابن السديد » - وهو من أعلام الطب فى العصر الفاطمى — من شفائه ، فامتنع عن عيادته . . وكأنه بذلك اصطلح مع الزمان على مناوأته . . .

وفى اليوم الذى حزنت فيه قصور الفاطميين وداراتهم ومجالسهم وأعيادهم لقطع الخطبة عنهم ، وانتقالها إلى العباسيين فى ذلك اليوم لبست مدينة بغداد أجمل حللها ، وازينت وأخذت زخرفها . فقد أرسل « صلاح الدين الأيوبى » إلى البطل الملك المجاهد « نور الدين » يعلمه بقطع الخطبة عن الفاطميين فى مساجد مصر بأسرها ، وإعادتها إلى العباسيين . وملأت الفرحة قلب « نور الدين » فأرسل رسوله « ابن أبى عصرون شهاب الدين أبى المعالى » إلى الخليفةالعباسى ببغداد ليعلمه بذلك ، ويقول المؤرخ « ابن كثير » صاحب كتاب « البداية والنهاية » إن مدينة بغداد زينت ، وغلقت الأسواق ، وعملت القباب ، وفرح المسلمون فرحاً شديداً . . .

والذى ذكره المؤرخ « ابن كثير » منقول عن الذى جاء فى كتاب « المنتظم » لابن الجوزى المؤرخ ، فى حوادث

سنة ٥٦٧ هـ . وفيه من الزيادة أن السكة — أو النقود — ضربت باسم الخليفة العباسي ، بعد أن ظلت تضرب باسم الفاطميين مائتين وثماني من السنين . ولقد كان المؤرخ ابن الجوزي نفسه ممن عاصر زوال الخلافة الفاطمية عن مصر ، وإعادة الخطبة فيها للعباسيين ، وكان هواه يميل مع العباسية ، فألف في ذلك كتاباً أسماه « النصر على مصر » وعرضه على الإمام « المستضيء بالله » العباسي أمير المؤمنين .

واشترك الشعر في هذه المناسبة ، بتهنئة الخليفة العباسي بالخطبة له على منابر مصر ، بعد أن قطعها الفاطميون أكثر من مائتي عام ، فأرسل البطل « العادل نور الدين » كتاباً إلى بغداد من إنشاء الكاتب الشاعر « العماد الأصفهاني » ، وفيه أبيات طويلة منها :

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

ولدينا تضاعفت نعم اللـ ـه وجلت عن كل عد وحصر

واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الهمام الأغر

ولقد كان « نور الدين » يمهد لنفسه ملك مصر بعد أن سقطت الخلافة الفاطمية ، وكان يدعى على منابر مصر

للمستضيء العباسي أولا ، ولنور الدين ثانياً ، ولصلاح الدين الأيوبي من بعدهما . . . وقد حدثت النفرة فعلا بين نور الدين وصلاح الدين . واستطاع بطل موقعة « حطين » بدهائه وحسن احتياله أن يقيم نفسه سلطاناً على مصر . وأن يبدأ فيها دولة جديدة وعرشا جديدا هي دولة الأيوبيين وعرش الأيوبيين .

* * *

ولما سلمت مصر لصلاح الدين الأيوبي بوفاة الخليفة الفاطمي العاضد . جلس البطل صلاح الدين نفسه يتقبل العزاء في الخليفة الشاب المقهور . . . بعد أن حضر جنازته ، وشهد عزاءه . وبكى عليه وتأسف . . . فقد كان الخليفة « العاضد » مطيعاً للوزير صلاح الدين الأيوبي حين وزر له ، وكان لا يعصى له أمرا ، وكثيراً ما تمنى « صلاح الدين » أن لا يفجع الخليفة في عرشه بقطع الخطبة عنه ، وتمادم على إقامة الخطبة لبني العباس بمصر قبل وفاة « العاضد » . ولكن تمت مشيئة الله ، وعلم الخليفة المخلوع بخلعه — كما تذكر بعض المصادر — فجلب له ذلك الهم والمرض ، « والقهر » ، كما يقول المؤرخ ابن إياس . . .

وتوطدت أركان الحكم الأيوبى فى مصر بعد موت الخليفة العاضد ، وانتهت من تاريخ مصر دولة جعلها الله واسطة بين دولتى الأخشيديين ، والأيوبيين . وأخذت الخلافة العباسية تتلفت إلى مصر من جديد بعد أن أزيلت عنها فى أول الحكم الفاطمى ، وأخذ الخليفة العباسى « المستضىء بالله » يرسل إلى مصر والشام الأعلام السود ، وهى شعار الدولة العباسية . وآذن ذلك كله بأن العرش الفاطمى قد هوى إلى غير رجعة . . .

فأخذ السلطان الجديد « صلاح الدين الأيوبى » يستخرج نفائس القصور الفاطمية من أماكنها ، واستعرض — كما يقول ابن كثير — حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة ، والآلات ، والملابس ، والمفارش شيئاً باهراً ، وأمراً هائلا ؛ من ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرد طوله أكثر من شبر وسمكه نحو الإبهام ، وحبل من الياقوت ، وإبريق عظيم من الحجر المانع . . . أما القضيب الزمرد فأن صلاح الدين كسره ثلاث فلق ، فقسمه بين نسائه . . . وقسم بين الأمراء شيئاً كثيراً من قطع البلخش والياقوت والذهب والفضة والأثاث والأمتعة وغير ذلك . . ثم باع ما فضل عن ذلك ، وجمع عليه

أعيان التجار ، فاستمر البيع فيما بقى هنالك من الأثاث والأمتعة نحواً من عشر سنين . . .

ولقد كان نصيب الخليفة العباسى ببغداد قدراً صالحاً من الهدايا النفيسة التى كانت تزدحم بها قصور العبيديين أبناء فاطمة . . كما كان نصيب الملك العادل نور الدين من ذلك شيئاً كثيراً .

ولكن أروع ما فى الموقف — حين اقتسمت الأسلاب ووزعت المخلفات — أن صلاح الدين الأيوبى عف عن ذلك كله ، وزهد فيه لنفسه ، فلم يأخذ شيئاً له ، وإنما اكتفى من تراث الفاطميين بما كان يهديه إلى الملوك والأمراء . وهنا يذكرنا البطل العفيف صلاح الدين بعفة الشاعر الفارس الجاهلى عنترة العبسى ، الذى يفتخر بقوله :

ينبئك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى ، وأعف عند المغنم

* * *

ونستطيع أن نتصور ضخامة التراث الفاطمى وروعة الكنوز الفاطمية حين نرجع إلى مصدر تاريخى وثيق ممن كتب عن دولتهم . كالمقريزى المؤرخ ، والمؤرخ الموسوعى الشهير أبى العباس

أحمد صاحب كتاب « صبح الأعشى » ، وحسبنا أن نشير هنا — على عجل — إلى التاج الفاطمى الذى كان يركب به الخليفة فى المواكب العظام ، وكانت فيه جوهرة عظيمة تعرف « باليتيمة » زنتها سبعة دراهم ، ولا يقوم عليها لنفاستها ، وحولها جواهر أخرى .

وحسبنا أن نشير إلى « قضيب الملك » ، وقد كان من الذهب المرصع بالدر والجوهر ، وكان الخليفة الفاطمى يقبض عليه بيده فى المواكب والحفلات العظام .

وحسبنا أن نشير — على عجل أيضاً — إلى الدواة الذهبية المحلاة بالمرجان ، وإلى رمح الخليفة اللطيف المودع فى غلاف منظوم باللؤلؤ .

وحسبنا أن نشير إلى خزانة الكتب ، وخزائن الكسوة ، والسروج ، والفرش ، والسلاح ، والتجمل والمال . وقد كان فى هذه الأخيرة من الأموال والجواهر النفيسة ، والذخائر العظيمة ، والأقمشة الفاخرة ما لا تحصره الأقلام ، كما يقول صاحب « صبح الأعشى » .

* * *

وإذا كان صاحب « صبح الأعشى » متأخراً فى الزمن عن سقوط الدولة الفاطمية ، فأن المؤرخ الثقة « ابن الأثير » صاحب كتاب « الكامل » قد شهد كثيراً من الأعلاق النفيسة لأنه كان قريباً جداً من زمن زوال الخلافة الفاطمية ، فقد مات سنة ٦٣٠ هـ . أى بعد سقوط الملك الفاطمى بثلاثة وستين عاماً. وحين تحدث هذا المؤرخ عن حبل الياقوت الذى وزنه سبعة عشر درهماً ، أو سبعة عشر مثقالا قال : أنا لا أشك ! فأننى رأيته ووزنته ...

* * *

وكما كان « صلاح الدين الأيوبى » عفيفاً إزاء التراث الفاطمى ، فقد كان كريماً نبيلا مع أهل الخليفة الفاطمى ، فقد نقلهم إلى موضع من القصر ، ووكل بهم من يحفظهم ويقوم بأمرهم حتى تتم فيهم إرادة الله . وبلغ من رعايته لهم أنه كان دائم التفقد لأمورهم حتى لا يتهاون الحراس فى شأن القيام عليهم . أما عبيد قصور الخلافة وإماؤها ، فقد باع صلاح الدين بعضهم ، وعتق بعضهم ، ووهب البعض الآخر . وبذلك خلت قصور الفواطم من سكانها ، كأن لم تغن بالأمس ، وأخذ

الخراب والوحشة يدبان فيها ، حتى لم يبق منها أثر ولا معلم ، إلا ما كان من المساجد التى أقاموها ، فقد بقيت إلى يومنا ، شاهدة بما كان للقوم من أثر فى حركة التشييد والتعمير لبيوت الله .

ولم تذهب دولة الفاطميين بمصر فى غمرة الجحود والنكران ، أو لم تضع فى زوايا الإهمال والنسيان . فقد بكاها المخلصون لها ممن ذاقوا الخير على يديها ، وتقلبوا فى أعطاف النعمة فيها ، كالشاعر « عمارة اليمنى » الذى لم يكن مصرياً ، ولا شيعياً ، ولا فاطمياً ، ولكنه كان فقيهاً شافعياً يمنياً ، قدم إلى مصر برسالة من أمير مكة إلى الخليفة « الفائز الفاطمى » . فأحسنوا إليه ، وبالغوا فى بره ، وتألفوا قلبه بالإحسان ، فمدحهم بخالد الشعر الذى يحتويه أغلب ديوانه . فلما كتب الله زوال دولتهم على يد « صلاح الدين » رثاهم بقصيدة مؤثرة لا بأس أن نذكر منها هنا هذه الأبيات :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... شقيت! مهلا ! أما تمشى على مهل؟

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتها فى أكرم الدول

قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ماأربى على أملى

* * *

ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى

بالله زر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما ، لاعلى «صفين» و« الجمل»

وقل لأهليهما : والله ماالتحمت ... فيكم جروحى ، ولاقرحى بمندمل

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود ، وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجه خوف منتقد ... من الأعادى ، ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسفى دمعى غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على مأثرات من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهى لم تحل

ومضى الشاعر المطوق بصنائع الفاطميين يعد حسناتهم من وجهة نظره ، فقد كان الوفاء لهم يحمله على أن يقول فيهم ما قاله من الشعر المؤثر المبكى .

وعلى حين نقرأ هذا الرثاء الحزين الوفى لدولة مصرية ذاهبة فإننا نجد من المؤرخين من يطعن فى الفاطميين جملة ، ويشك فى صحة نسبهم إلى أهل البيت الكريم . بل نرى مؤرخاً « كابن كثير » يتهمهم بأنهم كانوا من أعتى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم ، ويشير إلى البدع والمنكرات التى ظهرت فى أيامهم ، وإلى

النحل الخبيثة التى كثرت بالشام فى عهدهم .

إلا أن المؤرخ المنصف لا يسعه أن يغفل مناصرتهم للعلم ، ومساعدتهم للأدب ، وتشجيعهم للصناعة والفنون ، تلك الفنون التى تنطق بتقدم الصناعة العربية فى دولتهم تقدماً منقطع النظير .

* * *

ومنذ اللحظة التى سقطت فيها دولة الفاطميين بمصر لم ين عدة من أتباعها عن عقد الجماعات السرية لإثارة الفتن ولاضطراب الأمور على الدولة الأيوبية الجديدة . وكان « صلاح الدين » أفطن من أن تغفل عينه عن هؤلاء الداعين سراً إلى انتكاث حبل العهد الجديد . فكانت عيونه ترصدهم ، وتسد عليهم مسالك السبل ، حتى ضبطهم وهم يتفقون مع السودان ، ويكاتبون الفرنج . . . فقبض عليهم ، وكان فيهم « داعى الدعاة عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى » ، و « عمارة اليمنى » الشاعر الذى رثى الفاطميين بحر المراثى ، وغيرهما من أتباع الدولة الذاهبة ! وكانت خاتمة المطاف لهؤلاء الدعاة للفواطم أن صلبوا بين القصرين ، على مشهد من أهل القاهرة الذين تأكدوا أن عين صلاح الدين الأيوبى .. أول

ملوك الدولة الأيوبية - لا تغفل عما يدبر فى الخفاء له ولأولاده .

واستقبلت مصر فى حكم صلاح الدين الأيوبى عهداً من العدالة والاطمئنان والاستقرار لم يكن لها به عهد منذ أمد طويل .
وعلى الرغم من النفائس والكنوز التى أخرجها « صلاح الدين » من خزائن الفاطميين وقصورهم ، فأنه لما مات بعد حكم عادل صالح لمصر لم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ، وديناراً واحداً من الذهب . . .
ولم يخلف -- كما يقول المؤرخ ابن شداد — ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ، ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة . . .

وكذلك يكون الملوك حين يترفعون عن أطماع الدنيا الغرور .

جثة سلطان
على أحد أبواب القاهرة

هناك على « باب زويلة » وعلى بضع خطوات من جامع المؤيد ، شهدت هذه البوابة الضخمة العالية مصرع آخر سلطان من سلاطين المماليك فى مصر ، وبذلك طويت صفحة الحكم المملوكى ، وانقرضت الدولة الثانية من دولتى المماليك ، لترسف مصر فى أغلال عهد عثمانى بغيض .

وعلى الرغم من أن سلاطين المماليك كانوا غرباء عن مصر ، دخلاء عليها ، فأنهم أوجدوا لمصر شخصية مستقلة . فلم تكن تابعة لدولة أجنبية ، ولم تكن ولاية يحكمها وال من قبل سلطان ، لاهم له إلا ما يقدم إليه من حصيلة الأموال . . .

ولقد عرف عهد المماليك –على اختلاف دولتيهم– بالترف والبذخ ، والانتعاش الاقتصادى ، وحركة البناء والتعمير . كما عرف بالمشاركة فى محاربة الصليبيين ، ورد التتار الذين

كانت موجتهم تهدد الشرق الأوسط بالاجتياح ، بعد أن اجتاحوا عاصمة الخلافة العباسية ، وأزالوا دولة بنى العباس ، كما عرف عهدهم أيضا باحتضان الخلافة العباسية بعد أن ضاعت من بغداد . . . فمنذ عصر السلطان «الظاهر بيبرس البندقدارى» فى منتصف القرن السابع الهجرى كان يقوم بالقاهرة المعزية خليفة عباسى بجانب سلطان المماليك . . .

وظلت دولتا المماليك فى مصر قريباً من ثلاثة قرون ، أو على التحديد من سنة ٦٤٨ ﻫ إلى سنة ٩٢٢ ﻫ . وكانوا أخلاطاً من عناصر مختلفة وأجناس متباينة . فمنهم الجركسى ، والترى ، والرومى ، والمنادى ، واللاظ ، والكرد ، والأرمن ، والخطا وغيرهم .

وعلى الرغم من حسنات المماليك التى لا ينكرها منصف — كدفع الفرنجة والتتار عن البلاد ، وكتشجيع العلوم والتأليف — فإن سيئات كثيرة طبعت عهدهم بطابع المصلحة الشخصية والمنفعة الذاتية . فقد أهملوا كل حق للشعب إلا حقهم هم ، وأثقلوا كواهل الأهلين بالضرائب ، وأسخطوا العربان من أهل البلاد الذين كانت تندلع لهم كل حين نيران ثورة حامية

ودعك من رخيص المنافسات بينهم ، وتألب بعضهم على بعض ، حتى إن السلطان المملوكى «أحمد إينال» لم يحكم إلا أربعة أشهر عزل بعدها وتولى بعده السلطان « الظاهر خوش قدم » .

وفى مطلع القرن العاشر الهجرى كان الخصام بين مصر والدولة العثمانية يأخذ طريقه إلى المصالحة بين قايدباى والسلطان بايزيد العثمانى . ولكن هذا الصلح المؤقت لم يكن إلا مقدمة لحملة السلطان سليم العثمانى على مصر ، فى عهد السلطان المملوكى « قنصوه الغورى » .

وقد اتخذ السلطان سليم العثمانى من التجاء أخيه إلى سلطان مصر الغورى سبباً للغضب عليها والتطلع إليها . . .

وتلاقى الجمعان فى « مرج دابق » على مقربة من مدينة حلب ، وكانت شجاعة المصريين — على قلة عددهم — كافية لإدخال الرعب فى نفوس العثمانيين ، حتى لقد هم السلطان سليم بالفرار . . . لولا ما بدا فى صفوف المصريين من خيانة بعض النواب ، واسمه «خاير بك» فتفرقوا ، وسقط الغورى من فوق جواده فداسته سنابك الخيل ، وضاعت جثته فى غبار المعركة الحامية .

وجاءت أنباء المعركة إلى القاهرة تحمل فيما تحمل مصرع السلطان المصلح الجرىء الذى خرج ليطرد أعداء البلاد ، وليصدهم عن قصدها بسوء ، وليؤدى الأمانة الجسيمة التى ألقتها عليه البلاد . . .

ولم تستطع القاهرة أن تظل لحظة واحدة بدون تاج وبغير سلطان . . . لقد أقامت من « طومان باى» -وكان نائب غيبة عن الغورى- سلطانا على مصر باسم «الملك الأشرف أبى النصر طومان باى» .

ولم يختم الموت مهمة السلطان الغورى فى الدفاع عن مصر الخالدة إلا ليبدأ السلطان «طومان باى» مهمته . وكان العبء عليه ثقيلا ، لأن الأمراء حوله متنافسون متنازعون ، ولأن مطامعهم سدت عليهم منافذ السبل ، فلا همة تدفعهم ، ولا غرض شريف يؤلف بينهم ، غير الدس والوقوع على بعضهم بعضاً . وقد أنهكت الخلافات أجمل ما فيهم من قوى . فانحلت عزائمهم ، وقلت ثقتهم بأنفسهم ، وساءت ظنون بعضهم ببعض ، فتثاقلوا حين دعوا ، وتباطئوا حين نودوا . . .

ولكن « طومان باى » استطاع أن يجمع بينهم فى ساعة الخطر

المحدق بالبلاد ، إلا أنه لم يعدم أن يلقى خيانة من الأميرين المصريين «خاير بك» ، «وجان بردى الغزالى» اللذين أوقعا هزيمة بإحدى طلائعه إلى بلاد الشام .

وكانت جنود السلطان سليم تتقدم سريعاً نحو مصر ، وكلما هم «طومان باى» بالخروج مع المماليك للقائهم خارج القاهرة قعدوا به عن تنفيذ رغبته ، وأصبروه حتى يقترب العثمانيون من القاهرة . . . كأنهم يأبون إلا أن يغزوا فى عقر دارهم . . . وغفلوا عن قول الإمام على كرم الله وجهه : ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا . . .

وبعد حوار وجدال سمحوا بأن يخرجوا إلى ناحية الريدانية قرب العباسية الحالية ، وكان فى إستطاعتهم وهم فى أرض الوطن ، وعلى سلامة من وعثاء السفر ، وطول الرحيل ، وخوف نفاد المئونة أن يقاتلوا العدو المغير قتالا ينقطع معه أمله فى الغزو . . ولكن روحهم كانت تتهافت ، ومعنوياتهم كانت تتداعى ، وشغلهم الحرص فى أمر أنفسهم عن التفكير فى سلامة وطنهم .

وانتهت المعركة بدخول العثمانيين مصر وامتلاكها بعد أن فعلوا بأهلها ما تندى له الوجوه . . .

ولقد أدى « طومان باى » واجبه على خير ما يؤدى الجندى الشجاع الأمين واجبه ، فقد ثبت فى معركة الريدانية ثباتاً عجيباً ، حتى كاد يكون وحده فى معركة شوهت جلالها خيانة الأمراء...

وألجأته فضائح الموقعة الخاسرة إلى أن يفر . . . وعبر النيل إلى الجيزة ، سالكاً طريق الصحراء إلى الإسكندرية .

وفى الطريق لجأ إلى بعض أصدقائه من العربان ، وأقسموا له يمين الولاء والنصرة حتى يفتح الله عليه من جديد . . . ولكنهم كانوا يضمرون تسليمه إلى عدوه السلطان سليم ، ليشتروا بذلك ثمناً قليلا ، هو الزلفى إلى الفاتح الجديد . . .

وجاء جنود السلطان سليم العثمانى ليسوقوا سلطان مصر الفار إليه ، وجاءوا به مكبلا فى الأصفاد إلى معسكر السلطان سليم فى القاهرة .

وكأنه استراح واستراحت ركابه من السرى والسير دفاعاً عن عرش منقوض . . . ولكنه لم يفقد عزة البطل الذى خذلته عوامل لم يكن يستطيع لها دفعاً ، ولم يطأطئ هامته أمام هامة السلطان سليم المنتصر ، وإنما علا وجهه القنوط والأسف على مصير بلاده التى حارب من أجلها وفى سبيلها .

وكان بينه وبين السلطان سليم سؤال وجواب . . . فلم يفقده رهب الموقف حصافة الرد ، ولا حسن مواقع الكلام ، ولا سداد الجواب . . . حتى أدهش بطانة السلطان المنتصر .

واستبقاه السلطان سليم قريباً منه أياماً معدودات ، ليعرف منه أحوال البلاد ، ويستطلع أمور إدارتها ، فلما تم له ما أراد ، وانتزع من جعبة معارفه بالحكم ما أحب ، أمر به أن يساق إلى «باب زويلة» ، ليعلق تحت رواق الباب بكلاب من الحديد . . .

وسيق «طومان باى» فى هذا الركب وقد عضت بأطرافه الأغلال ، وأركب جواداً على غير هيئته حين كان يخرج للقاء الأعداء . . .

ومر موكبه الحزين بشوارع القاهرة ، وهو فى طريقه إلى الموت ، والناس والشعب والعامة يتزودون — فى صمت — بنظرات الوداع الأخير إلى بطلهم الأمين . . .

وصلب البطل ، وانحنت هامته على أخشاب المشنقة . . . ولكن هامة مصر المجاهدة ، المكافحة ، المناضلة فى سبيل استقلالها لم تنحن لحظة واحدة . . . لأنها مؤمنة بالله ، ومؤمنة بحقها القوى فى سبيل الحياة الحرة الكريمة . . .

ملك يبكى على عرشه المنهار
فتنهره أمه . .

كان السلطان المقهور المغلوب على أمره « أبو عبد الله محمد ابن أبي الحسن بن الأحمر » آخر ملوك المسلمين بالأندلس فى طريقه إلى مدينة « البشرات » التى قضت معاهدة التسليم لفردناند ملك قشتالة بأن يمضى إليها ، بعد أن نفض يديه من غرناطة وقصر الحمراء ، وبعد أن هوى التاج الأندلسى من فوق رأسه إثر هزيمته أمام المسيحيين . . .

وخرج الملك المغلوب من قصر الحمراء بعد أن ودعه الوداع الأخير ، وبعد أن تزود منه بنظرات ملؤها الأسى والأسف على هذا العرش المزال ، والملك المدال . وفى طريقه إلى محبسه الذى فرضته عليه معاهدة التسليم أشرف فى شعب « تل البذول » على غرناطة ، واكتحلت عيناه بآخر منظر لها وهى ذاهبة عنه ، وهو ذاهب عنها إلى غير معاد . . .

وطافت برأسه ذكريات عزيزة غالية لهذه المدينة التى كانت عاصمة مملكته، والتى شهدت ملك «بنى الأحمر» وعظمتهم لأكثر من قرنين من الزمان . . . ووقف الملك المغلوب لحظة وهو على الطريق يتملى بمنظر العاصمة الذاهبة والقصر المتروك قبل أن تحرم عيناه جمالهما إلى الأبد . . .

ولم يستطع — وهو إنسان ذو قلب — أن يحبس دموعه ، فأجهش بالبكاء ، وخانته الشجاعة التى قد تخون الرجال فى مثل هذه المواقف ، فأخذ يبكى على هذا الملك والمجد اللذين وليا الأدبار .

وكانت أمه الأميرة «عائشة» معه فى هذه اللحظة العصيبة، فى الركب السلطانى المخذول الذى حكمت عليه الأقدار بالتجريد من السلطان ، والخروج من الأوطان .

ولم يعجب الأم المحزونة منظر ولدها السلطان المغلوب المطرود وهو يبكى ، فالتفتت إليه قائلة :

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

* * *

لقد كانت هذه الربوة التى أشرف منها «أبو عبدالله» على

مملكته الذاهبة ، وعاصمته الضائعة ، والتى تنهد فيها تنهدة حارة أسفاً على ملكه الذى كتبت الأقدار عليه الزوال ، والتى احتشدت فيها ذكريات الأمس كله وازدحمت على ذاكرة السلطان المغلوب . كانت هذه الربوة مثاراً لتسمية شعرية أطلقها الأسبان على ذلك المكان ، فأسموه « زفرة العربى الأخيرة » . . .

ومضى أبو عبد الله الملك المغلوب إلى سبيله الأخير ، حيث سيأتى عما قليل وصف للحوادث التى أدت إلى تهاوى التاج الإسلامى من فوق مفرقه .

كان أبو عبد الله بن أبى الحسن ضحية الفتن التى حدثت بين أمراء المسلمين فى أخريات عهد الأندلس ، فلقد كان الأمراء فى شغل شاغل بمنازعاتهم عما يدبره لهم العدو الراصد المترقب .

وقد ضيق الأعداء عليهم تلك الرقعة الأندلسية الرحيبة حين كانت تقع بلادهم فى يد الأسبان بلداً إثر بلد . . . وكان سقوط هذه البلدان سبباً لانتشار لون من رثاء المدن فى الأدب العربى . . . ولا نزال نذكر القصيدة أو المرثية الشعرية

المؤثرة التى نظمها الرندى فى رثاء بعض مدن الأندلس ، والتى يقول فيها :

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم أسرى وقتلى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكمو وأنتمو يا عباد الله إخوان ؟

وقد أخذ الشاعر فى قصيدته يعدد القواعد الأندلسية الضائعة فى يد الأعداء ، والتى أخذت تتهاوى من عقد الأندلس قائلا :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له هوى له أحد وانهد ثهلان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وماتحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان؟

* * *

والحق أن بقاء المملكة الأندلسية لم يكن متوقعاً ولا مرجواً

بعد أن أخذت أركان البلاد تنهار من كل جانب ، وكان ذلك منذ القرن السابع الهجرى . ولا نكاد نبلغ القرن التاسع حتى نرى الأحداث تتطلع ، وحتى نرى الانحلال يدب فى مملكة ضاقت حدودها إلى شريط ضيق من الأرض حول مدينة غرناطة ، بعد أن كان شبه الجزيرة الأندلسية كلها فى يد العرب .

والحق أن منافسات الأمراء هى التى قضت عليهم وأزالت الملك كله جملة من أيديهم ، وأصارتهم إلى المصير المحزن الذى آلت إليه الأندلس بسقوط غرناطة وضياع ذلك الفردوس الجميل .

ولم يسلم السلطان « أبو الحسن » والد السلطان المغلوب «أبى عبد الله» من شرر التنافس ، ولم يصل إلى الملك إلا بعد صراع شديد بينه وبين منافسيه . وكان له أخ اسمه « أبوعبدالله » المعروف « بالزغل » فلم يسلم الأخ من منافسته .

على أن الزغل نفسه كان منافساً لابن أخيه «أبى عبد الله» السلطان المغلوب ، ودارت بينهما من المخاصمات والمحاربات أمور أفاد العدو منها أكبر فائدة ، فكان ينصر هذا على ذاك ، ويضرب واحداً بالآخر ، حتى قضى عليهما معاً ، وقضى على

الدولة الأندلسية كلها القضاء المحتوم فى سنة ٨٩٧ هـ .

وفيما كان مسلمو الأندلس يختلفون فيما بينهم ، ويمزق الخلاف أوصالهم ، ويقطع التدابر حبالهم ، كان الأسبان يبرمون أمرهم ، ويحكمون عقدهم ، وينظمون صفوفهم لكى يتم لهم بالاجتماع والاتحاد القضاء على المسلمين . وزادت قوة الأسبان باقتران فردناند وإيزابلا ، وإعلانهما ملكين لمملكة قشتالة قبل سقوط غرناطة ببضعة عشر عاماً .

وأصبحت « قشتالة » بهذا الوضع الجديد مبعث الشر ومصب البلاء على مملكة غرناطة . . . فمنها تخرج الغارات ، وفيها تدبر المؤامرات ، وإليها تعود المعاهدات والمكاتبات للتفريق بين المسلمين . . .

وليس من شك فى أن السلطان « أبا الحسن » والد السلطان المغلوب « أبى عبد الله » كان مسئولا إلى حد كبير عن الحوادث المحزنة وعن النهاية الأليمة التى انتهت إليها الأندلس ، فقد كان له ولدان من فتاة أسبانية جميلة تزوجها فأسلمت وتسمت باسم « ثريا » ، على حين كان له ولدان من الأميرة العربية « عائشة » ، وأحد الولدين هو « أبو عبد الله محمد » سلطاننا المغلوب . . .

وانقسمت الأندلس قسمين : ففريق يتعصب للأميرة عائشة الحرة ولابنها محمد أبى عبد الله،ويرشحه للعرش لأنه صريح النسب لم يفسده الدم الأسبانى . . . وفريق يتعصب لابن الأميرة الأسبانية ثريا ، ويتلقى من هذه الداهية كل توجيه وتشجيع . . .

واستجاب الملك الشيخ الضعيف لرغبة الأسبانية الفاتنة ثريا ، فحرم زوجته الأميرة عائشة وولديها كل عطف ورعاية، وغضب عليهم بعد لأى ،فقذف بهم فى برج «قمارش» ، من أبراج «الحمراء» ، وشدد الحراسة عليهم ، وأسرف فى إساءة معاملتهم . . .

وأمعن الملك الشيخ الضعيف فى الغضب على زوجه وأولاده ، فنزل عن العرش لأخيه « أبى عبد الله الزغل » . وبذلك ضاع الملك من ولد الأميرتين المتنافستين : عائشة العربية ، وثريا الأسبانية . . .

وكان هذا التنازل سبباً لقيام المنافسات بين « أبى عبدالله محمد » وبين عمه « أبى عبد الله الزغل » الذى نزل له أخوه عن الملك . وقد اكتوت غرناطة فى بضع السنوات الأخيرة

قبل سقوطها بنار هذا الخلاف الذى قام بين العم وابن أخيه. . . وانقسمت العاصمة المشرفة على السقوط إلى معسكرين ، أحدهما يناصر «أبا عبد الله الزغل» ، والآخر يناصر ابن «أخيه أباعبدالله» الذى هوى تاج الأندلس من فوق جبينه . . .

ولقد وقفت الأميرة عائشة الحرة بجانب ولدها « أبى عبد الله محمد » فى أحرج ساعات الصراع والقتال بين الولد وعمه . . . وكان حى « البيازين » من أحياء غرناطة ينتصر لأبى عبد الله محمد ويتعصب له ، على حين كانت بقية المدينة تنتصر للزغل . . وفى خلال هذا الخلاف الدموى الثائر بين اثنين من بيت الملك الأندلسى كان فردناند ينتزع البقية الباقية من الأندلس بلداً تلو بلد .

واستطاع أبو عبدالله محمد أن يبعد عمه من طريق العرش ، وأن يتبوأه هو ، ولكنه لم يهنأ به ، فأن عمه «الزغل» ظل يناوئه ويستعدى عليه الأسبان ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فسار إلى ملك المسيحيين وعرض عليه طاعته ، فأجابه فردناند إلى مطالبه . وكانت نتيجة ذلك أن بلغ الأسبان مدينة « وادى آش » سنة ٨٩٥ هـ ودخلوها وبسطوا سلطانهم على كثير من

الأراضى التى كانت فى حوزة «أبى عبد الله الزغل» .

والتفت « الزغل » حواليه فوجد نفسه لا يعدو أن يكون تابعاً حقيراً من أتباع الملك فردناند ، وأيقن أن تلقيبه بملك « أندرش » لا يعدو أن يكون مهزلة أتقن الداهية فردناند إخراجها . . . فنزل عن حقوقه وامتيازاته التى وهبها له الأسبان وعبر البحر إلى بلاد المغرب ، لعله ينعم فيها بهدوء يكفر فى خلاله عما أساء به إلى وطنه وقومه .

ولما غادر « الزغل » الأندلس إلى بلاد المغرب خلا الجو لابن أخيه « أبى عبد الله محمد » الذى تخلص بهذا من أكبر منافس له . ولعل « أبا عبدالله » فى غفلته قد اطمأن بهذا إلى أعدائه الأسبان وعلى رأسهم فردناند . . . ولم يدر أنهم كانوا يتربصون به الدوائر ، ويتحينون الساعة الملائمة للخلاص منه ومن مملكة غرناطة الأندلسية ، ومن المسلمين جملة . . .

وحانت الساعة المرتقبة التى كان الأسبان يعدون لها اللحظات ؛ فقد أرسل فردناند إلى « أبى عبد الله محمد » يطلب منه تسليم قصور الحمراء — وهى مقر الملك والحكم فى الأندلس — على أن يبقى أبوعبدالله مقيما فى غرناطة فى طاعة الأسبان وتحت حمايتهم.

وقد كان يمكن أن يحمل الضعف والانكسار الملك «أبا عبد الله محمد» على قبول التسليم ، ولكن أهل الرأى حول الملك وكبار القواد أشاروا عليه بالرفض ، وأعلنوا — فى حماسة — استعدادهم للجهاد ، وعزمهم على القتال والدفاع عن هذا المعقل الإسلامى إلى آخر رمق من حياتهم

وعاد الرسول إلى فردناند و إيزابلا يحمل إليهما عزم المسلمين وتصميمهم على الدفاع ، مهما يكن الثمن غالياً .

وتعرض المسلمون بعد هذا الموقف لألوان من غارات المسيحيين العنيفة التى كان يؤججها الغيظ من هذا الإباء العربى الكريم . . . وحمل الذعر كثيراً من المسلمين على الفرار من المدن التى كانت عرضة لحملات الأسبان ، وخرج كثير منهم إلى بلاد المغرب بعد ما أيقنوا أن وطنهم الحبيب يعالج النزع الأخير . . .

* * *

وفى غمار هذه الفتن كانت « غرناطة » فى ثباتها ومنعتها تمثل الصلابة التى لا تلين أمام الأحداث . . . فقد ازدحمت بالوافدين عليها ، وأصبحت مبعثاً للثورة وإشعال الحمية فى نفوس المسلمين .

وصمم «فردناند» على أن يخمد أنفاس المسلمين بإخماد هذه المدينة المقاومة المصابرة ، فضرب حولها الحصار أشهراً ، وأهلها يغالبون الأهوال ، ويعانون من صنوف المحن والبلايا ما لا يحتمله إلا ذوو البأس الشديد .

وبلغ الهول والضيق بالمسلمين حداً لم تعد تنفع فيه شجاعة ولا يغني فيه اصطبار . . . فقد أنهك الجوع والمرض والذعر أهل المدينة المحاصرة ، وفقد المسلمون كل أمل فى الخلاص من هذا الموقف العصيب ، فاتفقت كلمة الكبراء والقواد على التسليم ، بعد أن أدركوا أن الناس قد ضعفت أرواحهم ، وانحطت معنوياتهم ، وانهارت أعصابهم إلى حد لا تنفع معه مقاومة .

ووضعت شروط تسليم غرناطة بعد مفاوضات أحاطها الكتمان الشديد ؛ وكانت شروطاً أملتها القوة ، وقبلها الضعف الذى لا يجد سبيلا غير الإذعان . . . وقدم المسلمون رهائنهم من الرجال والفرسان توكيداً لتنفيذ معاهدة التسليم . . . وبلغ عدد الرهائن خمسمائة ، ولما دخل الأسبان المدينة الإسلامية الضائعة واطمأنوا إلى مواقفهم فيها ردوا الرهائن من الرجال .

ودخل فردناند المدينة مزهواً منتشياً بخمر الانتصار ، وظل إلى آخر النهار يتنزه فى «الحمراء» ويجيل بصره فى روائعها وآثارها . . . وكانت قد تأثرت بالأنفاط والمحرقات والمدافع وغيرها ، فأمر بترميمها فى الحال وإصلاح شأنها .

*
* *

وخرج الملك المقهور « أبو عبد الله محمد » من الحمراء ، وحددت له لحظة يلتقى فيها مع غالبه فردناند ، فكان لقاء مؤثراً . . . وقدم أبو عبد الله لفردناند مفاتيح « الحمراء » قائلا : أيها السيد ؛ إن هذه المفاتيح هى الأثر الأخير لدولة العرب فى أسبانيا ، وقد قضى الله أن يصير إليك ملكها . . . فكن عادلا فى انتصارك ، رحيما فى ظفرك .

ومضى الملك المقهور فى طريقه إلى « البشرات » حيث لا تاج ولا عرش ولا سلطان . وبكى الملك وهو مشرف على «الحمراء» من ربوة عالية حين استعاد فى لحظة قصيرة ذكريات ملك مضاع ، وهنا نهرته أمه الأميرة «عائشة» لأنه يبكى كالنساء على ملك لم يصنه صيانة الرجال . . .

ولم يطق السلطان المغلوب البقاء فى الأندلس ، فخرج

بأهله وأولاده إلى بلاد المغرب ، واستقر به المقام فى مدينة « فاس » ، وبنى فيها بعض القصور على الطراز الأندلسى لا المغربى ، وقد أدركها المؤرخ «المقرى» صاحب «نفح الطيب» ، ورآها ودخلها فى القرن الحادى عشر الهجرى

وبقى السلطان المقهور فى مدينة فاس فى شبه عزلة عن العالم يعتذر عما أسلفه ، ويتلهف على ما خلفه !

ولعل الدموع لم تسعفه هنا ، ولم يسعده البكاء فى منآه عن الوطن أو منفاه . . . ولعله قد استنفد دموعه كلها يوم أن ودع « الحمراء » ، وهو فى طريقه إلى « البشرات » . . .

من الخلافة إلى الجمهورية

كان الانقلاب الذى حدث فى تركيا الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى أمراً لا بد منه بعد أن أخذت أوضاع العالم تتغير ، و بعد أن أخذت شرارات وجذوات تنتقل من مكان إلى مكان .

ومنذ قام « كمال أتاتورك » بحركته النضالية فى سبيل استقلال تركيا ، وخاصة بعد أن احتل اليونان أزمير وأساءوا فيها الفعل والتصرف — منذ ذلك الحين بدأ النضال يأخذ شكلا مسلحاً ، وأخذت الانتصارات العسكرية يتلو بعضها بعضاً .

وكانت هزيمة اليونان فى أزمير سنة ١٩٢٢ مثاراً للدهشة الحلفاء من ناحية ، ونقطة تحول فى السياسة التركية من ناحية أخرى ، وكان كل شىء ينبئ بأن البلاد التى جلس على عرشها آل عثمان مقدمة على أمر خطير .

وبينما كانت حكومة الكماليين فى الأناضول تقوم بواجبها

نحو تطهير البلاد وتخليصها من براثن الأجانب، وتوجيهها نحو مستقبل يهيئ لها أن تحيا حياة كريمة، ويعوض عليها ما أضاعته منها الحروب وخاصة حرب سنة ١٩١٤ — بينما كان ذلك يجرى فى أنقرة عاصمة الحكومة الجديدة كانت وزارة توفيق باشا القائمة فى القسطنطينية غافلة عن هذه الحقيقة، ومتناسية أن البلد لا يمكن أن تديره حكومتان : واحدة فى أنقرة حيث الحركة الكمالية، وأخرى فى عاصمة الخلافة وعلى شواطئ البوسفور حيث يجلس السلطان «محمد وحيد الدين» على عرش آبائه . . .

ولقد بلغت الغفلة وتجاهل الحقائق من الوزير توفيق باشا حداً جعله يبرق إلى الزعيم أتاتورك فى أنقرة يذكره بأن تركيا مقبلة على أن تقتعد مقعدها فى مؤتمر الصلح، وأنها لا بد أن تجلس فى المؤتمر وهى قوية موطدة ثابتة الدعائم . . . وأن الذى يجب أن يمثلها فى المؤتمر أعضاء من حكومة الانقلاب بأنقرة، وأعضاء من حكومة الخلافة بالقسطنطينية على السواء . . . وكأنه كان بذلك يشير من طرف خفى إلى أن مركز السلطان والخليفة محمد وحيد الدين يجب أن لا يغفل فى هذا الوضع الجديد . . .

ولم يدر هذا الوزير المتجاهل المتغافل أنه بهذه البرقية العجيبة إلى زعيم الانقلاب كان يدق ناقوس الخطر على مصير الخلافة والسلطنة . . .

ومن الضرورى أن نشير إلى أن الخلافة والسلطنة كانتا تجتمعان فى شخص الخليفة العثمانى ، وأن سلاطين آل عثمان – منذ انتقلت الخلافة إليهم من مصر – كانوا يجمعون بين السلطتين فى يد واحدة . . . ولم يسكت الوزير الغافل توفيق باشا على برقيته التى كانت موضع التندر عند الزعيم أتاتورك وأعوانه ، بل أرسل برقية مثلها إلى مجلس الأمة الكبير ، بعد أن أنذره أتاتورك بالانسحاب من هذا الطريق الوعر المحفوف بالأخطار ، وبعد أن حمله مسئولية ما يقع فى البلاد من فوضى بسبب هذا الاتجاه . . .

ورأى الزعيم أتاتورك أن يحسم الداء حسماً سريعاً ، فى غير تلكؤ ولا إمهال . . . فاجتمع مجلس الأمة فى أنقرة التى كانت مركزاً للحركة الكمالية وقرر فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ مادتين اثنتين كانتا أول السطر فى كتاب الانقلاب الخطير . . .

لقد كانت المادة الأولى تنص فى صراحة وجراءة على أن

سلطة الحكم فى تركيا تتركز فى المجلس . . . وأن المجلس قائم بالفعل على مباشرة هذه السلطة ، وأن الحكومة الموجودة فى الآستانة والمستندة إلى السلطنة تعتبر حكومة باطلة .

أما المادة الثانية فتنص على بقاء الخلافة فى الأسرة العثمانية بعد أن نزعت منها السلطنة . . . وتركت هذه المادة لمجلس الأمة حق الاختيار لمنصب الخلافة من الأصلح والأرشد من آل عثمان . . . ولم تكن الأصلحية فى هذا الوضع الجديد لتقاس بغير معيار العلم والخلق . . .

وكانت المذكرة التفسيرية لهذا القانون الذى فصل السلطنة عن الخلافة تعتمد على اتهام السلطان بتآمره مع الأعداء ضد الحركة الكمالية التى كانت تهدف إلى النضال والاستقلال .

ولم يقنع الخليفة الذى أقصى عن السلطة والسلطنة بأن ينكمش مركزه إلى حد جعل منه صورة مجردة من كل سلطان ، فقد التفت حواليه – فى إطار هذا القانون الجديد – فوجد نفسه وقد زال عنه سلطان الحكم ، وجلال الأمر والنهى ، ووجد الأحكام الجديدة تصدر عن غير إرادته ، فلا تحمل اسمه ، ولعله أدرك أن هذه الخطوة بفصله عن السلطنة وإلغاء السلطنة

من البلاد ستعقبها — قريباً أو بعيداً — خطوة أخرى بإلغاء الخلافة نفسها من تركيا ، وذهابها إلى غير معاد . . .

ومن يدرى فلعله وصلته بإحدى طرائقه الخاصة أنباء المناقشات العنيفة فى مجلس الأمة بأنقرة ، والحملات التى حملها النضاليون على بيت الخلافة ولقبها الذى لم تربح منه البلاد ، بل كان غرماً عليها أكثر مما كان غنماً لها . . .

ولم يطق الخليفة البقاء فى قصر الخلافة بلا سلطان . . . ولعله كان يمنى نفسه منذ اختير للخلافة من الكماليين بأن يشهد ألواناً من النعيم الذى شهده آباؤه من السلاطين . . . فلما ضاع أمله فى ذلك لجأ إلى إنجلترة ووضع نفسه تحت حمايتها لتعينه على أن يغادر البلاد فى ظلال الأمن والعافية . . .

وجلس الزعيم أتاتورك يوما فى دار الرياسة بأنقرة فإذا ببرقية تأتيه من « هارنجتون » القائد الأعلى للقوات الإنجليزية . . . وفيها أن الخليفة قد وضع نفسه تحت الحماية الإنجليزية ، بعد ما تبين له أنه رأى حريته وحياته فى خطر . . . وأنه التمس من القيادة الإنجليزية أن تعينه على مغادرة الآستانة . . . وذكرت البرقية أن القائد نفسه قد ذهب إلى قصر السلطان ورافقه إلى

سفينة حربية إنجليزية . . . وأن السلطان كان ولا يزال موضع العناية الفائقة . . . وأن رغباته تبلغ أولا بأول إلى الملك جورج الخامس . . .

ولم يكن أمام مجلس الأمة حين قرأ هذه البرقية يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٢ إلا أن يجتمع على عجل ، وأن يقرر خلع محمد وحيد الدين من الخلافة ، لأنه لم يعد صالحاً لها بعد ما كان من تصرفه الأخير . . .

وما كان ليصدر قرار خلع وحيد الدين بغير أسباب قوية تسوغ موقف الكماليين أمام عواطف الملايين من المسلمين . . . وكان أقوى الأسباب التى انصبت على رأس الخليفة المخلوع أنه خان الأمانة التى ألقاها الله عليه بوصفه إماماً للمسلمين . . . فقد انضم علانية إلى أعداء الدين . . . وناوأ حركات المجاهدين الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والوطن . . . وكان قرار الخلع مدعماً بفتوى دينية استصدرها الزعيم أتاتورك من بعض رجال الدين ليوهن بها موقف الخليفة المعزول .

وكأن أتاتورك كان يثأر بهذه الفتوى لنفسه . . . فقد أصدر الخليفة قبل ذلك فتوى ضد الزعيم المجاهد بأنه خلع طاعته

من السلطان الذى أمر الله بطاعته ، وأنه لذلك يحق حكم الله فيه بالبغى والفساد . . .

وحملت البارجة الإنجليزية السلطان المعزول ، ومضت به على أمواج البحر المتوسط — أو بحر الروم — تاركاً البلاد وراءه تغلى وتناضل فى سبيل استكمال سيادتها واستقلالها .

* * *

ولم يكن عزل وحيد الدين ليحسم مشكلة الخلافة على أحسن الوجوه وأضمنها لسلامة البلاد وهى فى مهب الرياح العاتية . . . فقد كانت العيون متفتحة على كل ما يجرى فى الدولة الجديدة المنتصرة ، وكان الحساد يبغون لتركيا عثرة تنتكس بها حركتها المباركة ، ورأى بعض أعضاء مجلس الأمة أن ينتهزوها فرصة للتخلص من الخلافة العثمانية جملة ومن الخلفاء . . . ورأى الآخرون أن الساعة لم تحن بعد ولم تحل أشراطها . . . فقرر المجلس تنصيب خليفة جديد بدلا من الخليفة الخائن المعزول . . . ووقع الاختيار على عبد المجيد — ابن عم وحيد الدين — ليكون خليفة على المسلمين .

ولم يكن نصيب «عبد المجيد» فى تمثيلية الخلافة بأسعد من

نصيب ابن عمه المعزول . . . فقد وضعه أتاتورك على عرش آل عثمان ذراً للرماد فى العيون . . والواقع أن الزعيم كان يعتقد عبث هذا المنصب الذى أصبح سخرية الساخرين . . . وكان أكثر أعوانه وأنصاره فى النضال يرون هذا الرأى ، ولكنه لم يجد الوقت مناسباً بعد للتخلص من منصب الخلافة كما تخلص سنة ١٩٢٢ من منصب السلطان . . .

وجاء إعلان الجمهورية التركية فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ خطوة تمهيدية فسيحة لإلغاء الخلافة وتحقيق الأمنية التى كانت تجيش بها صدور أعضاء الانقلاب وأعوان الزعيم . .

وجاءت المادة الأولى من الدستور التركى الجديد تعلن أن شكل الدولة جمهورى . . . وأن رئيس الجمهورية هو رئيس الدولة ، و بالطبع كان أتاتورك أول رئيس للجمهورية فى عهدها الجديد .

* * *

و بينما كانت أنقرة تعج بنشاط الحكومة ، وتتقرر فيها مصاير الأمور على النحو الذى يحقق آمال البلاد ، كانت الآستانة — فى بعدها عن أنقرة — تشهد نشاطاً من نوع جديد . . . فقد كان قصر «الخليفة عبد المجيد» يموج بالزوار الذين تهاووا إلى

العاصمة الإسلامية القديمة من كل حدب لكى يقدموا إلى خليفة المسلمين ولاءهم ، ويؤكدوا له حبهم ، ويتحفوه بالهدايا الثمينة . . . بل بالغ بعضهم فى المصانعة والمداهنة حتى أن الخليفة ورم أنفه - أو كاد - من كثرة ما كان يسمع من عبارات التمجيد والدعاء والرجاء إلى الله أن يبقى الخليفة ، وأن لا يمس منصبه الجليل بسوء . . . .

وزادت الحركة بما كان يمدها به أنصار الخلافة والعاطفون عليها من مختلف أمم الإسلام ، حتى كان للخليفة عبد المجيد حزب كبير ، وكان له أنصار فى تركيا ذاتها وفى غيرها من الأقطار . . .

وأخذ الخليفة الطموح يصطنع لنفسه عظمة فى الخلافة ، ويصنع الأسباب لتفخيم منصبه وإعلاء شأنه . . . فزاد من صلاته مع الهيئات والشخصيات الإسلامية العالمية ، وفتح قصره الرحيب الفخم لكل وافد ، وكان بريده اليومى طافحاً بآلاف الرسائل التى تحمل العطف والتشجيع . . .

ولم يحبس نفسه فى زوايا القصر كما صنع «وحيد الدين» من قبله . . . ولكنه كان يخرج فى مواكبه إلى الصلاة الجامعة فى

ذلك الركب التقليدى الرائع . . . وكانت تقام له مراسم البلاط كما كانت تقام فى عهد السلاطين ذوى النفوذ . . . واستقبل ممثلى الدول كما كان يستقبلهم آل عثمان فى عهود الازدهار . . . وأبقى العادة من رسم «الأعطيات السنية» ، وإصدار الإرادات «الخليفية التشريفية» . . .

وأمعن الخليفة الطموح فى إيهام العالم الخارجى بسلطته وتأثيره وقوة نفوذه وسلامة مركزه ، فخلع على نفسه بمرسوم «خلافى شريف» لقب «خليفة رسول رب العالمين ، وخادم الحرمين الشريفين عبد المجيد بن عبد العزيز خان» . . . وتوج هذه المظاهر والمراسم كلها بأنه اتخذ لنفسه لباساً خاصاً على هيئة السلطان محمد الفاتح . . . عملا بقول الشاعر : فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم . . . وأحفظت هذه المهازل التمثيلية رجال الانقلاب وعلى رأسهم الزعيم أتاتورك الذى وجدها فرصة مواتية للقضاء على هذا المنصب . . . وذكرت هذه المهازل رجال الانقلاب بالدور الذى لعبته الخلافة ، فكانت تطعن الحركة الكمالية من ظهرها ، وكانت تصدر الفتاوى الشرعية ضد رجالها . . . واجتمع قديم السخط على الخلافة مع حديث السخرية منها ، فوطد الزعيم العزم

على إلغائها ، واعتمد فى ذلك على نصيريه : عصمت ، وفوزى .

وأخذ الزعيم قبيل انعقاد مجلس الأمة فى أوائل سنة ١٩٢٤ يمهد السبيل لإلغاء الخلافة ، ويلقى بذور الفكرة فى كل كلمة يقولها ، تهييئاً للجو . وفى إحدى خطبه بالمجلس أشار من طرف خفى إلى ذلك بمناداته بضرورة تدعيم الجمهورية مهما يكن السبيل إلى ذلك ، وبسد كل ثغرة يمكن أن ينفذ منها خطر على البلاد . . . فكانت تلك الإشارة نذيراً بالصيحة التى دوت فى جلسة ٣ مارس ١٩٢٤

ففى ذلك اليوم التاريخى كانت قاعة المجلس الوطنى تنبىء بأن حدثاً خطيراً سيحدث . . . وحينما أخذ الأعضاء يناقشون سياسة الميزانية العامة للدولة ، ويبحثون مخصصات الخليفة والخلافة بما تحمله من تكاليف باهظة ، وينقبون عن خبايا الأمور الشرعية والأوقاف . تقدم خمسون نائباً من نواب المجلس بمشروع قانون ينص على إلغاء الخلافة وإخراج الأسرة العثمانية من البلاد ، وكان أحد النواب من علماء الدين من الخمسين الموقعين على المشروع . . وبذلك انتفى القول بأن هذه الحركة مدنية محض ، فهذا عالم بالدين ومطلع على مسألة الخلافة من ناحيتها الدينية ،

وعارف بأقوال إخوانه العلماء والفقهاء فيها، يقرر إلغاء هذا المنصب مع إخوانه النواب . . .

وأقر مجلس الأمة القانون المقترح، وكانت مواده تنص على خلع الخليفة، وإلغاء الخلافة، وحرمان الخليفة المخلوع وأفراد الأسرة العثمانية ذكوراً وإناثا هم وأصهارهم من الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية إلى الأبد، وإجبار هؤلاء جميعاً على مغادرة البلاد فى ظرف عشرة أيام، وهى المدة التى حددها القرار لتسوية أمورهم وتصفية أموالهم، وحرمان هؤلاء من التمتع بالجنسية التركية التى زالت عنهم، ونقل ممتلكات الخلافة والخلفاء إلى الأمة، ونقل مفروشات قصور الخلافة، ورياشها، ولوحاتها، وتحفها، وألطافها إلى ملكية الأمة . . .

* * *

وفى اليوم المحدود لإبعاد الخليفة وأبناء الخلفاء عن بلدهم كانت وسائل النقل تزدحم بهؤلاء الذين تعرف فى وجوههم نضرة النعيم، لكى يخرجوا من الأرض التى أنبتتهم، حيث يستقبلهم التشتيت وجهالة المصير فى بلاد غريبة عنهم .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لآل عثمان ذكر ولا خبر إلا فى أسفار التاريخ .

ملك يتهم بالخيانة
فيقطع رأسه

كانت التهمة التي وجهها الشعب إلى الملك «شارل الأول» ملك إنجلترة هي تهمة الخيانة . . . وكان الحكم الذي صدر عليه لهذه التهمة الخطيرة هو الإعدام . . .

ولم يستطع شارل أن يدفع عن نفسه، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلها ، فقد كان إعدامه أمراً محتوماً لا مفر منه ، وقد سبقت بذلك كلمة الشعب التي تجمعت في قرار الثوار ، وعلى رأسهم « أوليفر كروموويل » .

ولقد كان في مكنة شارل الأول أن يكون ملكاً محبوباً ، وخاصة بعد غطرسة « جيمس الأول » الذي كان يؤمن بنظرية الحق الإلاهي المقدس للملوك . . . فليس لأحد من الشعب حق معارضة الملك أو مناقشته الحساب عما يصدره من أعمال ... ولكن الولد سر أبيه . . . فقد نشأ شارل الأول ورأيه كرأي أبيه

من ناحية الحق المقدس للملوك .

وبدأ الصراع بين الملك شارل والشعب منذ أن نوقشت ميزانية الدولة فى البرلمان ، فكان الملك يرى أن من حقه تقرير الضرائب التى يراها بغير رجوع إلى البرلمان أو موافقة منه ، بينما البرلمان يرى أنه صاحب الحق الأول فى تقرير الضرائب ، وأنه لا يجوز للملك أن يقرر ضريبة من غير موافقته .

وتجاوز هذا الصدام إلى مسألة أخرى تتصل بالحرية الدينية التى يكره الناس أن تمسها القيود ... فقد تزوج شارل بالأميرة الفرنسية « هنريتا مارى » أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا ، وتعاهد الملكان على أن يكون ملك فرنسا حامياً للكاثوليك فى إنجلترة . . . وهنا دخلت الريبة فى قلوب الإنجليز وظنوا أن ملكهم شارل الأول يخفى فى نفسه شيئاً ، ويضمر سوءاً للمذهب البروتستانتى .

وأخذ شارل الأول يتحدى البرلمان ، ويعرض به فى كل مناسبة ، ولا يرى فى أعضائه الذين اختارتهم الأمة غير جماعة من الثرثارين المتشدقين ، الذين يعطلون بثرثرتهم دولاب العمل ، ويقيمون المشاكل والصعوبات ، ويخلقون العوائق خلقاً بما

يلابسون به المسائل من تصعيب وتعقيد . . .

وقد أثار تندر الملك بالبرلمان ورجاله حفيظتهم ، فوقفوا حائلا بينه وبين رغباته التى يرون من حقهم أن يقروها نواباً عن الشعب الذى انتخبهم ... فلما طالبهم يوما ببعض الاعتمادات المالية التى كان فى حاجة إليها رفضوا أن يجيبوا مطلبه . . . فقابل هذا الرفض منهم بحل مجلس العموم .

وظن الملك أن حل المجلس قد يكون درساً قاسياً لمن تأتى بهم الانتخابات المقبلة فى المجلس الجديد . . . ولكن الأعضاء الجدد لم يكونوا ألين عوداً ولا أسهل عريكة من النواب السابقين ، فاصطدموا برغبات الملك ، ورفضوا الاعتمادات المالية التى طلبها منهم ، وأبانوا له أنهم إنما يفعلون ذلك تمسكاً بحق يؤمنون أنهم أصحابه نيابة عن الأمة التى انتخبتهم ، وأن المسألة لا تعدو أن تكون إيماناً بمبدأ ودفاعاً عن فكرة . . . وأن ذلك الإيمان بحقوقهم الشرعية لا يتعارض مع ولائهم للعرش . . . فإن من الخير أن يعرف كل ذى حق حدود حقه فلا يتجاوزه ، ولا يتعداه بحال من الأحوال ، وإلا كان فى ذلك طغيان من جانب على جانب . . .

ولم تعجب هذه النغمة الجريئة الواعية كبرياء الملك الشاب ، ولم ترض نفسه التي ورثت الغطرسة والعجرفة وحب الحكم المطلق عن أبيه « جايمس الأول » ... فذهب الملك المغرور بنفسه إلى مجلس العموم وألقى على النواب خطاباً خرج فيه عن التقاليد الرصينة النبيلة ... ونسى وهو يؤيد حقه فى الحكم المطلق أنه استفز النواب بعبارات شديدة ، تحمل التهديد والسخرية والغرور ، وتدل فى مجموعها على الحمق الذى قاده بعد ذلك إلى سوء المصير . . .

لقد خاطب الملك نواب الأمة قائلا : « إنكم حين حاولتم أن تمنحوا أنفسكم من الحقوق ما ليس لكم قد أسأتم فهم المهمة التى تقومون بها ، وليس من العقل أنكم ستدركون هذه الحقوق المزعومة فى يوم من الأيام . . . وحين تعللون أنفسكم بإدراك ما تزعمون من حقوق فإنما تعللونها بالسراب الذى يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . . . ومن تكونون أنتم ، وما يكون مجلسكم الذى هو قبسة من النور الذى أنا مبعثه ؟! وما تكون السلطة التى تزعمون أنها لكم وما هى إلا منحة

من السلطة التى أنا مصدرها . . . والتى خولنيها الله بحق السيادة عليكم . فكيف تقلبون الأوضاع رأساً على عقب ؟ وكيف تجرءون على أن تمسخوا الحق ، فتحيلوا الأخذ عطاء ؟ وتجعلوا الكثافة ضياء ؟

ولقد كان مسلككم معى منذ البداية مما لا يليق أن يوجه إلى ملك يستمد سلطانه من الله لا منكم . . . فجئت الآن أنذر ، وغداً لن تأخذنى فى واحد منكم شفقة ولا رحمة .

وأود قبل أن أبرح المنبر أن أقول لكم إن هذا المجلس النيابى وكل مجلس يأتى بعده هو من صنع يدى ومحض مشيئتى . . . فإذا شئت أبقيتها ، وإذا شئت حللتها . . . واعلموا أن بقاءها وزوالها مرتبط بما يبدو لى من نتائج عملها . . . » .

وأراد شارل أن يبرهن على صدق تهديده ووعيده ، وأن يثبت أن البرلمانات ما هى إلا لعبة فى يديه ، فحل المجلس مرة ثانية .. . وثالثة ، وألقى بالظاهرين المناوئين من أعضائه فى غيابات السجون ، ونكل بالآخرين أشد تنكيل .

وذاق شارل حلاوة الحكم المطاق حيث لا معقب لحكمه ، ولا راد لإرادته ، ولا مناقش لتصرفاته ، فحكم البلاد حكماً

استبداديا لمدة أحد عشر عاماً . . . لا ينازعه فيها سلطان ، ولا يحاسبه فيها برلمان . . .

وفى خلال هذه الفترة الظالمة المظلمة أطلق الملك الاستبدادى لنفسه العنان . . . فأثقل كاهل الشعب بالضرائب ، واستخرج الأموال من خزائن الأغنياء وجيوب الناس بألوان من الحيل ، وصنوف من المخادعات . . . وكانت كلها تنفق على شهواته ، وتصرف على مخصصات عرشه ، وأباح لنفسه أن يجيز من التشريعات الاستبدادية ما تصادر به الأموال ، ويعتقل به الأفراد بغير حساب ؛ حتى لم يعد الفرد يأمن على نفسه السجن ، أو على ماله المصادرة .

ووجد الملك فى القوانين الاستثنائية التى أصدرها وسيلة إلى إثارة الرعب فى النفوس ، وإذاعة الهلع بين الناس ، وتسليط سيف الإرهاب فوق الرقاب ، وظن وهو منتش بخمر هذه الكبرياء الزائفة الزائلة أنه يستطيع أن يخمد الأنفاس ، أو يلجم الألسنة ، أو يكسر شوكة الساخطين عليه .

واضطر الملك سنة ١٦٤٠ أمام سخط الأمة وحنقها ، والأزمة المالية التى أحاطت به ، والعواصف السياسية التى

اكتنفته من كل جانب ، والحرب التى قامت بينه وبين اسكتلاندة — اضطر الملك أمام ذلك كله أن ينزل لنواب الأمة فى البرلمان الجديد عن بعض حقوقه وامتيازاته ، وكانت الأمة ساخطة أشد السخط على وزيره « سترافورد » الذى كان يعده الشعب أصل الداء ومصدر البلاء ، فوقع الملك بيده أمر محاكمته وصادق على الحكم بإعدامه . . . . فسكنت ثائرة الشعب بعض السكون ، وهدأت العواصف التى كانت تغتلى بالسخط على الوزير الفاسد المفسد ، واستمر الهدوء يعاود النفوس حتى سنة ١٦٤٢ .

ولم يكن هذا الهدوء إلا هدنة على دخن . . . فقد عاد الملك الاستبدادى إلى قديم سيرته ، ورجع إلى طغيانه بأشد مما كان عليه قبل مقتل وزيره ، وأخذ يناوئ البرلمان مناوأة حملت النواب على أن يكتبوا إليه يلزمونه الحدود التى رسموها له أو رسمها هو لنفسه منذ عامين . . . . ويذكرونه بالوعود التى بذلها ، ويؤاخذونه على السقطات التى ارتكبها . . . فغضب الملك من هذه اللهجة التى لم يتعودها من قبل ، ورأى فيها إهانة لذاته التى لا تمس . . . وأضمر للنواب شراً ؛ ودبر

خطة للقبض على خمسة من زعماء المعارضة ، ولكن أمرها اكتشف ، فلم يذهب النواب إلى المجلس فى الجلسة المتفق على تنفيذ الخطة فيها . . .

وأفضت سياسة شارل الغشوم إلى نشوب الحرب الأهلية فى إنجلترة ، وإلى قيام ثورة جامحة بزعامة كرمويل ، فلم يعد فى قوس الصبر منزع عند الثوار ، واضطر الجيش نفسه أن يتدخل ليضع للأمور حداً يحسن الوقوف عنده ، بدلا من هذه الفوضى التى طال أمدها .

وصحا الملك الغشوم النؤوم ذات يوم من نومه على صوت يقرع الباب . . . فإذا أربعة من ضباط الجيش وخلفهم بضعة منهم يقتحمون الباب على الملك من غير تحية ، ويخاطبه كبيرهم « الكولونيل كوبت » قائلا :

البس ثيابك وتعال معنا فنحن مكلفون باقتيادك . . .

وسألهم الملك فى دهشة : من الذى كلفكم ؟ فأجابه الضابط : الجيش هو الذى كلفنا القيام بهذه المهمة . . .

وسيق الملك فى حراسة شديدة إلى قلعة « هرست » القائمة على صخرة عالية ناتئة فى البحر ، وبقى الملك فى هذا القصر الكئيب المظلم ينتظر مصيره الذى كتبته له الأقدار .

واستصدر الثائر الزعيم كرمويل قراراً من مجلس النواب بمحاكمة الملك شارل أمام البرلمان بتهمة الخيانة العظمى للوطن ... ولما آنس كرمويل من بعض النواب تردداً فى قرار المحاكمة خشية أن يثور الشعب لفكرة محاكمة ملكه قال لهم : « لا تخشوا شيئاً ! فلن يأتى أحد بحركة ، ولن تهمس شفة باعتراض . . . وسنحز رأس الملك ، والتاج على مفرقه ، والناس صموت » .

* * *

وفعلا أعدم الملك شارل الأول والناس صموت . . . ولم يرتفع صوت إلا صوت مساعد الجلاد الذى أخذ الرأس المقطوع وهو يقطر دماً وصاح : هذا رأس ملك خان وطنه . . .

إمبراطورة

تؤثر الموت على الفرار من الثوار

حقاً إن الشجاعة التي أبدتها الإمبراطورة « أوجيني » حين الثورة عليها وعلى زوجها «نابليون الثالث» كانت مضرب الأمثال..

لقد كان الثوار يحيطون بقصر « التويلرى » وهم فى هياج شديد لأنباء الهزيمة التى منيت بها فرنسا فى حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠ .

وكانت أنباء القتال ترد إلى باريس أولا بأول ، ولم تكن تحمل الأخبار فى جعبتها ما يسر الفرنسيين أو يطمئنهم على مصير جيوشهم المحاربة فى جبهة الألزاس واللورين . وقد كانت الأيام الأولى من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٠ حبلى بكل عجيب من الأخبار ، فكل يوم يحمل نبأ عن تقهقر ، وكل ساعة تحمل خبراً عن ارتداد . . . إلى أن كانت النكبة الكبرى

فى معركة « سيدان » التى وقع فيها الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً فى قبضة الأعداء .

والجماهير لا ترحم فى غضبها وفى انفعالها ، فقد نسيت لنابليون الثالث كل حسنة ، وعزت إليه نكبة الوطن الفرنسى ، واتهمته بالجبن والخور وسوء القيادة . . . ولو أنه انتصر للقبته بالبطل المغوار ، وخلعت عليه أكاليل الغار . وكذلك الناس دائماً ، من يلق خيراً فأنهم يقولون له ما يشتهى ، ويسمعونه من المدح والثناء ما يريد وفوق ما يريد ؛ أما المخطىء فلأمه الهبل . . .

وقد أصاب الإمبراطورة الفاتنة الجميلة « أوجينى » شواظ من نار الغضب والسخط لا يقل عما أصاب زوجها . . . فقد ألقى عليها الرأى العام الفرنسى مشاركة التبعة فى هزيمة فرنسا . . . واتهمها بسوء السياسة ، وفساد الحاشية ، وقلة المبالاة بمصير فرنسا ، لأنها ملكة غريبة عن البلاد ، لم تنبتها أرض فرنسا ، ولا أظلتها سماؤها ، ولا اغتذت بعناصرها ، ولا صبغت بشرتها ولا كيانها من ثراها . . . وإنما هى أسبانية ولدت فى غرناطة ، وقضت صباها فى مدريد . . .

وامتلأت شوارع باريس العديدة ، وساحاتها الرحيبة ،

وطرقاتها المنتشرة هنا وهناك بالجماهير الحاشدة ، وقد ضغطها الزحام ضغطاً ، وهى تنصب فى تكتلها واندفاعها كأمواج بحر متلاطم ، وقد ارتفع الصياح من كل حنجرة ، وعلا الهتاف من كل شفة ، بسقوط الإمبراطور الخائر الجبان ، وسقوط الإمبراطورة الأسبانية الخبيثة . . .

وكان الهتاف المدوى يبلغ عنان السماء فتهتز له جنبات الأثير ، كأنما هناك زلزلة فى الفضاء ... ولكن «أوجينى» لم تهتز لهذه الحمم التى تقذفها أفواه ثائرة ، فكانت هادئة البال رابطة الجأش ، كأن هذه الصيحات ليست نذيراً لها بأهوال عواصف شداد . واعتقدت أنها بهدوئها وضبط نفسها ستتغلب حتماً على العاصفة ، وستجتاز هذه الأزمة الطاحنة بسلام . . .

ومرت أيام ونار الغضب والسخط تسرى بين الجماهير كما تسرى النار فعلا فى الهشيم ، وزاد الهياج إلى حد خشى معه العقلاء أن ينقلب إلى جحيم يأتى على مدينة العلم والنور ؛ ويأتى على الاستقرار الذى تحتاج إليه فرنسا وهى فى أعقاب الهزيمة التى حاقت بها فى معركة « سيدان » .

وكانت الإمبراطورة أوجينى قائمة مقام زوجها فى أثناء

حربه ضد الألمان ، وألقيت عليها أعماله كلها ، حتى رياسة مجلس الوزراء .

وانعقد المجلس برياسة الإمبراطورة فى قصر التويلرى لاتخاذ التدابير لمواجهة الحالة التى نجمت عن هزيمة فرنسا ؛ ولم تكد أوجينى تخرج من المجلس — بعد انفضاضه — حتى جاء إليها وفد من أعضاء مجلس النواب يشرحون لها الحالة فى المدينة وفى سائر أنحاء فرنسا بالتفصيل ، ويبينون لها الأخطار التى تستهدف لها فرنسا لو استمر الحال على هذا المنوال ، وينصحونها أو يدعونها إلى النزول عن العرش ، تهدئة للخواطر الثائرة ، وتسكيناً للنفوس المهتاجة ، وحقنا للدماء التى ستحمل الإمبراطورة وزر سفكها فيما لو أصرت على البقاء . . . .

ورفضت أوجينى النصيحة التى أسداها إليها النواب ، معلنة أنها لا تستطيع أن تبرح مكانها فى القصر مهما أحاط بها من أهوال ، وأنها لا تتمسك بالعرش حباً فيه ولا احتفاظاً لزوجها به . . . ولكنها تسلمت أمانة الملك من زوجها الأسير فى يد الألمان ، فكيف تتخلى عن الأمانة التى ألقيت إليها ؟ وكيف تعتزل الحكم بمثل هذه السهولة التى يقترحها عليها

النواب ؟ إنها باقية على عرش فرنسا حتى يقضى الله أمره ؛ فأذا رأت الأمة - ممثلة فى نوابها - أن فى بقائها أو بقاء النظام الإمبراطورى ما لا يحقق أهداف الوطن أو يضمن مصالحه فى هذه الظروف الحرجة . فأنها لن تستطيع حينئذ إلا أن تخضع لقرار الأمة بعزلها أو بألغاء نظام الحكم كله . . . أما أن تنزل عن العرش طائعة مختارة فذلك ما لا سبيل إليه . . .

ذلك كان القرار الذى اتخذته الإمبراطورة الفاتنة ، وصممت عليه أمام النواب الذين جاءوا يطالبونها بالتنازل .

وبدأت الأمور تتحرج أمام المرأة المصممة . . . فقد كانت التقارير ترد إليها كل لحظة بأخبار المظاهرات العنيفة التى تزلزل البلاد ، وكانت الأنباء تحمل رغبات الشعب وتصميمه على القبض عليها ووضعها رهينة لديه حتى يعتزل زوجها العرش ويعلن رسمياً هذا الاعتزال .

إن الشعب الثائر الغاضب لهزيمته لم يستطع أن يصل إلى إمبراطوره وهو فى أسره ليرغمه على التنازل ، فاتجه إلى الإمبراطورة فى قصرها ليجعلها رهينة عنده حتى يتم تنازل الإمبراطور المغضوب عليه .

ولم تمنع صرخات الجماهير واحتشادها حول القصر الإمبراطورى من أن تجتمع «أوجينى» مع المخلصين من الرجال والمستشارين ليعالجوا المسألة علاجاً يحفظ على فرنسا كرامتها، ويحفظ على القصر كيانه ، ويحفظ على الملكة الشابة حياتها ...

وفى يوم مشمس من أيام سبتمبر كانت الجموع تنساب فى غزارة وتدفق إلى ميدان «الكونكورد» ، وتتجمع حول القصر الإمبراطورى .

وكانت الإمبراطورة داخل القصر وقد أذهلتها الأحداث ، وتمثل لها المصير الذى ستؤول إليه لو أوقعتها الأقدار فى يد الثوار . . . وكان كثير من رجال القصر يروحون ويجيئون فى حيرة من أمرهم لا يدرون ما يصنعون ، وجاء رئيس حراس القصر وهو مقطوع الأنفاس ، يعلن الإمبراطورة أن الثوار قد حطموا بمعاولهم أسوار القصر الخارجية ، وأنهم يحيطون بجدرانه الداخلية إحاطة السوار بالمعصم .

ودنا الخطر على خطوات من سمع أوجينى وبصرها ، وغدا الهتاف المدوى من بعيد جلجلة راعدة فى آذان الإمبراطورة ورجال القصر المحيطين بها ، وخيف على السيدة الأولى فى فرنسا

أن تهجم عليها الجماهير الثائرة وهى فى سورة الغضب فتفتك بها فتكاً .

وانفلت زمام الأمر فى العاصمة الفرنسية الجميلة ؛ حتى عجز رجال الشرطة عن أن يضعوا للأمر حداً يقف عنده ، وزادت حماسة الثوار حينما علموا أن الجنرال « تروشوه » حاكم باريس العسكرى قد انضم إليهم ، وأعلن قبوله تأليف حكومة مؤقتة .

واهتم السفراء والوزراء المفوضون ورجال الهيئات السياسية بمتابعة الحوادث والتنبه لها ، حتى يكونوا من الأمور على أهبة...

وكان السياسى الداهية «مترنيخ » سفيراً للنمسا فى باريس فى ذلك الوقت ، فهرع مع سفير إيطاليا إلى قصر التويلرى لعله يستطيع أن يسدى إلى الإمبراطورة صنيعاً فى هذا الوقت العصيب . . .

واقترح عليها السفيران فى إلحاح أن تخرج من القصر هاربة ، خشية أن تظفر بها الجماهير الثائرة فتفتك بها .

ولم يثن كل ذلك الإمبراطورة العنيدة عن تصميمها على البقاء لتؤدى واجبها المقدس إمبراطورة ونائبة عن زوجها

الإمبراطور . . . وليكن من الأمر ما يكون . . . فأنها آثرت أن تقع فى براثن خطر محقق على أن تهرب مما كانت تعتقده واجبها المقدس . . .

وألح عليها الداهية « مترنيخ » أن تهرب ، لأن الجماهير فى انفعالها لا ترحم ولا تعقل ولا تقدر الأمور . . . ولأن الثائرين وهم فى حدة ثورتهم لن يرحموا فيها ضعف المرأة ، ولن يوقروا فيها جلال الملكة والإمبراطورة . . .

وتوسل إليها مدير الأمن العام فى فرنسا أن ترحل فى غير تسويف لأن الأمر لم يعد يطيق تسويفاً . . . . فلم تجد المسكينة بداً من أن تذعن لهذه الرغبات التى تلتقى جميعاً فى هروبها من القصر . . .

وصافحت الإمبراطورة أصحابها من رجال الحكم وبطانة القصر ، وأعضاء الهيئة السياسية ، ولم تنس أن تعبر لهم عن شكرها لمجاملتهم إياها ساعة المحنة . . . وتمنت أن تلقاهم فى أسعد الأوقات . . .

وبينما كان سفير إيطاليا يدفعها بلطف نحو الباب ، جذبها مترنيخ سفير النمسا جذبة قوية عصبية ، لأنه لم يعد هناك

موضع للإبطاء فى الخروج . . . ومشت أوجينى تجر ساقيها فى تثاقل وبطء كأنها مئودة بحمل لا طاقة لها به ، وودعت قاعة العرش التى كانت فيها والألم الممض يكاد يقتلها ، وما زالت تنتقل فى أبهاء القصر وطرقاته ومسالكه السرية حتى انتهت إلى المدخل السرى لباب القصر ، فتسللت منه إلى الخارج وهى معتمدة على ذراع وصيفتها .

ولم يشأ « مترنيخ » أن يتركها فى شوارع باريس خشية أن تقع عليها العيون المتربصة ، فاستدعى لها مركبة مقفلة وودعها فى حذر وحيطة ، مخافة أن يعرفها أحد من هذه الجموع التى تنتظرها . . .

وسارت المركبة بالإمبراطورة ووصيفتها على غير هدى فى شوارع باريس التى تعج بالثائرين ؛ ولو فطن أحد إليها لفتكوا بها فتكاً . وقد أذهلت الحيرة أوجينى عن مكان تأوى إليه وتعتصم به ، وتذكرت صديقها المستشار « بيسون » . . . فلما ذهبت إلى بيته وجدته خالياً من كل نسمة ، فتركت المركبة وسارت فى طريق طويل لا تعرف إلى أين تمضى . . . وكادت تعود ثانية إلى قصر «التويلرى» تلتمس فيه راحة من تعب ،

وسكوناً من اضطراب . . . ولتحكم عليها الأقدار بعد ذلك بما تشاء . . . . ولكن وصيفتها صرفتها عن هذه المجازفة التى لا تؤمن عواقبها .

وفكرت فى أن تلجأ إلى المستر « واشبورن » سفير أمريكا فى فرنسا ، لعلها تجد الأمن والعافية فى حمايته . . . أو فى حماية الراية الأمريكية . . . ولكنها خشيت على صديقها الإحراج والحرج . . . فعدلت عن هذه الفكرة الخاسرة .

ولم تجد فى قائمة أصدقائها العديدين غير الدكتور «إيفانس» الطبيب الأمريكى ، فقصدت إليه بعد مغامرات ومعاكسات من الأقدار التى يحلو لها أن تعبث بالناس فى أمثال هذه الساعات . . .

ودبر الجميع خطة للهرب من فرنسا ، ولكن أين السبيل بهم إلى ميناء قريب يبحرون منه إلى حيث تريد لهم الأقدار ؟

لقد اجتازوا مدن سان جرمان ، وبواسى ، وترييل ، وفو ، وميولان من غير أن يحطوا الرحال فى واحدة منها ، فقد كان الهرب السريع يعجلهم عن التلكؤ فى المسير . . . وبلغوا

ثغر دوڤيل ، وأخذ الدكتور إيڤانس يبحث عن سفينة تهم بالرحيل ، أو عن مركب يستأجرونه . . . . وأتاح القدر السعيد لهم أن يجدوا « يختاً » راسياً فى الميناء يملكه « السير جون بارجوين » وكان صديقاً للدكتور إيڤانس . . . . فحملهم بعد ليلة قضوها فى الثغر الجميل .

وأقلع اليخت فصادفته رياح عاتية ، وأمواج عالية ، كأن الأقدار تضن على الملكة الهاربة حتى بعبور هادئ . . . ووصل اليخت إلى الشاطئ الإنجليزى ، فأطمأنت أوجينى حينما وضعت قدميها على أرض إنجلترة . . . تلك الأرض التى استقبلت من قبل ملكين فرنسيين طريدين . . . هما لويس الثامن عشر ، وشارل العاشر .

* * *

وأمضيت معاهدة الصلح بين فرنسا وألمانيا ، وأطلق سراح الإمبراطور الأسير . . . ولكنه خرج من أسر الأعداء ليجد نفسه رجلا عادياً بغير تاج ولا عرش . . . فلم يجد غير إنجلترة ليلحق هناك بزوجه الطريدة . . .

ولم يستطع الإمبراطور الطريد نابليون الثالث أن يقاوم

آلام الهم والشيخوخة والمرض التى اصطلحت عليه بعد ضياع ملكه والتجائه إلى إنجلترة، التى كانت أعدى أعداء عمه نابليون بونابارت . . . فمات من علة جسدية سنة ١٨٧٣ أى بعد ثلاثة أعوام فقط من معركة سيدان . . .

أما الإمبراطورة فقد أرخت لها الأيام فى الأجل إرخاء طويلا ، فعاشت حتى سنة ١٩٢٠ . . . وبذلك ظلت أرملة لمدة سبعة وأربعين عاماً . . . ، وماتت فى سن الرابعة والتسعين . . .

وقد شاءت الأقدار أن تعيش أوجينى لترى انتصار فرنسا فى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ بعد أن شهدت انكسارها فى حرب سنة ١٨٧٠ التى أدت إلى سقوطها وسقوط زوجها ... ولعلها ماتت قريرة العين حين رأت أن القدر انتقم لها ولفرنسا من عار حرب السبعين .

وظلت الإمبراطورة العجوز فى عزلتها ووحشتها الطويلة فى إنجلترة إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فأستأذنت حكومتها فى العودة إلى وطنها فرنسا . وإلى العاصمة الجميلة التى كانت مقر قصرها الأمبراطورى . فأذنت لها

الحكومة ؛ فاستأجرت بيتاً يطل على قصر التويلرى ، وهو القصر الذى جلست فيه على عرش فرنسا يوماً من الأيام .

وكانت نظراتها العميقة الحالمة إلى القصر تستعيد لها ذكريات ماضٍ جميل .

مصرع القيصرية
فى غرفة بالدور الأرضى

لقد شهدت مدينة «كاترينبرج» الروسية أفظع مصارع الملوك منذ أن كان للملوك مصارع . . . فقد فاق مقتل القيصر « نيقولا الثانى» وأسرته أى مشهد يتصوره الخيال ، فى مصارع الرجال .

ولم يكن القيصر نيقولا بأول حاكم قتل ، ولا سلطان صرع . . . ولن يكون . . . فقد حفلت البشرية بتواريخ مصارع الحكام ، كما حفلت بسقوط دول وقيام دول ، وسيظل ذلك الحال حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان القيصر نيقولا يتربع على العرش ويتمتع بالحكم فى دولة يقارب عدد سكانها مائتى مليون نسمة . . . وكانت هذه الملايين الكادحة تشقى لكى ينحدر الذهب اللامع الرنان إلى جيوب القياصرة وأبنائهم وأعوانهم . . . فتتخم القصور بألوان من السعادة والترف والرفاهية التى كانت تضن بها الأيام على

الشعب المسكين ، حتى فى عالم الأحلام . . .

ولقد كان غليان الأفكار فى مطالع القرن العشرين نذيراً بأن عاصفة ستهب على العالم لا تبقى ولا تذر ، وجاءت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فأججت النفوس وأعدتها للانفجار عند أول لمسة للتيار . . .

وبينما كانت الحرب العالمية الأولى مندلعة اللهيب فى كل ميدان كانت روسيا تعج بالثورة الكبرى التى قامت فيها فى مارس سنة ١٩١٧ — أى قبل أن تقر سيوف الحرب العالمية فى الأغماد . . . وقامت الثورة على القيصرية لأنها كانت عش الفساد فى البلاد . . . وكانت أناشيد الثوار تنتقل من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية فتربط البلاد كلها بصيحة واحدة هى النذير لعهد القياصرة بالزوال . . .

وانصبت جموع الثوار كالسيل المنهمر على قصر نيقولا الثانى ، وقر قرارهم على أن ينفى هو وعائلته إلى مدينة « توبلسك » .

وكان القيصر الوديع الواجم مهموماً بأمر زوجته القيصرة وولى عهده الذى كان غلاماً لم يخط بعد إلى مرحلة الشباب ،

وبناته الأربع اللائى كانت تتراوح أعمارهن بين السادسة عشرة والثانية والعشرين .

وبينما كان القيصر فى هموم أسره مع أسرته ، لم تشأ الأقدار أن ترحمه فى هذه الساعات الكئيبة أو تتركه ينعم ببعض الراحة والهدوء . . . فقد كان ابنه وولى عهده مريضاً ، وكانت مضايقات الأسر وملابساته القاسية لا تساعده -- وهو يافع — على احتمال الآلام .

ولم يستطع الغلام المريض أن يرحل مع أسرته من توبلسك إلى «كاترينبرج» ، فبقى وبقى معه ثلاث من أخواته حتى يتم له الشفاء فيلحق بوالده الحزين المتضعضع ، وبوالدته التى هدتها الهموم هداً .

وكان انتقال القيصر وأسرته من بلد إلى بلد يتم فى هدوء وعدم اكتراث ، بعد أن كانت الدنيا تقوم وتقعد لتنقلاته . . . وبعد أن كانت القطارات القيصرية الفخمة تطوى بهم الأرض طيا فى بقاع وضياع لا يدرك الطرف مداها . . .

وكانت الحاشية القليلة العدد التى سمح رجال الثورة بذهابها مع القيصر فى أسره حاشية محطمة الآمال ، مهيضة

الجناح . . . وزالت عنها كل مظاهر النفوذ التى كان يتمتع بها المتصلون بالقصور . . . وأيقنت الحاشية الأخيرة للقيصر الأسير أنها تقضى أياماً معدودات قبل أن تفعل الأيام فعلتها لتقرير مصير القيصر الكسير . . . .

ولم تعد مراكب القيصر تهز جنبات الأرض حين يتحرك . . . فقد كان الثوار ينقلونه من مدينة إلى مدينة ، وهو يجر وراءه أسرته الطريدة ، فلا تهتف باسمهم شفة ، ولا يهتم بهم إنسان ، بل كثيراً ما كان الأميرات الناعمات بالأمس يحملن متاعهن من قطار إلى قطار ، ويخضن الأوحال فى الأيام المطيرة ، كأنهن بالأمس القريب لم تستبق الرجال إلى خدمتهن والتماس الرضا منهن . . .

وانتهى بالقيصر وأسرته المطاف إلى مدينة كاترينبرج التى شهدت مصرعه ومصرع أسرته ، ولم يكن القيصر يعلم أنه مسوق إلى هذه القرية ليلقى فيها موتة تشمئز منها النفوس . . .

وقد اختار رجال الثورة بيتاً للقيصر يتحقق فيه ما يرمون إليه من سجنه وعزله عن العالم الخارجى إلى أن يتقرر مصيره كما تقضى به تعاليم الثوار .

وكانت غرف البيت أقل من أن تأذن لأسرة مالكة بأن تجد فيها بسطة الراحة، واتساع المغدى والمراح . . . حتى لقد كاد الجميع يحشرون حشراً فى هذا السجن المقصود .

وفى الطبقة العليا من هذا البيت ثلاث غرف . . . وضع القيصر والقيصرة وولى العهد فى واحدة منها ، ووضع البنات الأربع فى غرفة أخرى . ووضعت إحدى الوصيفات فى غرفة ثالثة . . . أما بقية غرف البيت فقد أعدت للحراس الذين عهد إليهم القيام على حراسة هؤلاء الأشراف الذين كانت تأتمر الدنيا بأمر والدهم المنكود .

وكأنما لوحظ فى اختيار هؤلاء الحراس أن يذلوا معانى العزة والكرامة والوقار فى القيصر المعزول . . . وفى أفراد أسرته . فقد كانوا جفاة غلاظاً فى المعاملة وفى القلوب . . . وكانت بوادر الصرامة والجفاء على وجوههم وفى حركاتهم تكفى لأن تذل كل جبار ، بله هؤلاء الحور اللائى كن كأمثال اللؤلؤ المكنون .

وقد قصد الحراس إلى استفزاز القيصر وأسرته بكل شائن من السلوك مما لا يتفق مع كرامة ، ولا يستقيم مع آداب . . .

وما ظنك بحارس عملاق يندفع إلى حجرة الأميرات بلا استئذان ؟ حتى لقد كان هؤلاء الناعمات الناعسات الطرف يتعرضن لدخول الحراس عليهن فى أى وقت من ليل أو نهار . . .

وكان القيصر على جلاله المسلوب يتلطف مع هؤلاء الغلاظ الشرسى الأخلاق ، فيأذن لهم بالطعام على المائدة مع أسرته . . . حتى لقد أخجلهم بتواضعه ولطفه ودماثة خلقه ، كما أخجلتهم القيصرة والأميرات بالصبر الجميل فاستعبدوا قلوبهم ، وكسروا من حدتهم . وألقى ذلك التصرف النبيل من الأسرة المالكة شيئاً من الرحمة والعطف فى قلوب هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد .

* * *

وكانت السلطة فى مدينة كاترينبرج فى يد مجلس إقليم أورال ، وهو مكون من ثلاثين عضواً ، وقد لاحظ المجلس بعد استبدال الحراس القدماء بأن عطف الحراس الجدد على القيصر وأسرته لا يمكن أن يفسر إلا بالضعف والاستخذاء .

واتصل مجلس أورال بمجلس موسكو لاتخاذ قرار فى هذا الموضوع الذى يتوقف عليه مصير القيصرية فى البلاد . . .

فقرر المجلس أن يعين « يورفسكى » رئيساً للحراسة على القيصر وأن يختار هو لمعاونته فى مهمته الصارمة من يشاء من الحراس . . .

وكان يورفسكى يهودياً من المتعصبين المتطرفين ضد القيصر ، وكانت فظاظته وغلظته السبب فى وقوع الاختيار عليه ، فاختار عشرة من أسرى النمسويين الألمان يعاونونه فى الحراسة ، ولم يكونوا أرحم منه قلباً ، ولا أكرم نفساً ، فقد أغلظ الزمان أكبادهم إلى حد جعل أيام القيصر وأسرته فى بيت كاترينبرج جحيما لا يطاق .

وهنا قرر المجلس التنفيذى لمدينة كاترينبرج وعلى رأسه يورفسكى أن تنهى حياة القيصر وأسرته فى أمد قريب .

وفى مساء الأحد ١٤ يوليو دخل كاهن إلى البيت الذى يقيم فيه القيصر وأسرته لإقامة بعض الصلوات والطقوس الدينية . وكان غرض يورفسكى من ذلك أن يبرر موقفه أمام الروس المتدينين فى ذلك الوقت ، حتى لا يقولوا إن قيصرهم قد قتل من غير أن يزود بخدمة دينية . . .

وفى الليلة التالية كان يورفسكى قد اجتلب سراً اثنى عشر

مسدساً من محلة الحرس بالمدينة ، وأسرّ إلى من جلبها له بأنه قد حكم على الأسرة القيصرية بالإعدام ، وأن إعدامها سيتم فى تلك الليلة . . .

وفى الساعة الأولى بعد منتصف الليل دخل يورفسكى غرفة القيصر وأيقظه وقال له : إن جنود الأعداء ستصل إلى المدينة قبيل الفجر . . . وقد يقع الصدام بينها وبين خصومها فى الشوارع ، فخير لك ولأسرتك أن تنزلوا إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، حتى تكونوا بمأمن من طلقات الرصاص ، الذى يحتمل أن ينفذ من منافذ البيت وشبابيكه . . .

وتساءل القيصر إذا كان من الأفضل أن يأخذوا معهم إلى « بدروم » المنزل بعض متاعهم ، فأجاب يورفسكى بأن الأليق أن يأخذوا الوسائد فقط ليضعوا عليها رءوسهم إذا ما استسلموا إلى بعض الكرى .

ودخل يورفسكى غرفة الأميرات وأبلغهن ما أبلغ به أباهن ، واستعد الجميع للنزول إلى الطبقة الأرضية من المنزل ، إيثاراً للخلاص من مناوشات قد تقع فى شوارع المدينة كما أفهمهم الجلاد يورفسكى . . . ولم يكونوا يعلمون أنهم سائرون لملاقاة

قضائهم المحتوم . . .

وتزل القيصر وزوجته وأولاده وبطانته وطبيبه الدكتور بوتكن ، وكان عددهم جميعاً أحد عشر نفساً ، وقد أعياهم النحول الذى أصابهم فى مكان أسرهم البئيس ، حتى أن بزة القيصر العسكرية ، وثيابه الحربية ، وبنطلونه الأزرق الذى يشبه لباس الفرسان لم تكن لتخفى شيئاً من الشحوب البادى على وجهه . . . نزلوا جميعاً إلى الدور الأرضى فى تلك الساعة الباكرة من الصباح ، وكان الظلام الدامس يجلل سلم « البدروم » ويسود ذلك الطبق الأسفل الشبيه بغيابات السجون ... وأضاء أحد الحراس مصباحاً ضئيلا لينير السلم الموحش المظلم المفضى إلى أسفل الدار . . . وكان القيصر يخطو فى وقار وذهول ، وتتبعه زوجته المرتجفة ، أما ولى العهد فقد كان ثقيل الخطى لأن المرض المصاب به كان نوعاً من الكساح .

وكانت الأميرة تاتيانا — وهى ثانية الأميرات الأربع — تمشى شاردة اللب ، وعلى وجهها مسحة من جمال أذبلته الأيام ، ولعلها كانت ساخطة على الأقدار التى جلبت بها إلى هذه النهاية الكئيبة ، بعد أن كانت الأقدار نفسها تعد لها تاجاً آخر

بخطبتها إلى ولى عهد إنجلترة . . .

وكان طباخ الأسرة المالكة آخر من نزل السلم إلى «البدروم» فقد كان نزول الجميع إلى هذه الحاوية مطابقاً لمراسم القصور وقواعد « البروتوكول » . . .

واجتمع أعضاء الأسرة القيصرية مع طائفة من الجلادين والرماة العتاة فى غرفة واحدة فى قرارة المنزل . . . وكان كل جلاد مزوداً بالبنادق والمسدسات ، وقيل للمساكين : لا تجزعوا فإن سيارات ستحضر لنقلكم من هذا المكان ، ولكنها كانت إحدى كذبات « يورفسكى » البلقاء المشهورة . . .

ولم يكن فى الغرفة كرسى واحد أو قطعة من أثاث غير الموقد المستند إلى الحائط ، فطلب القيصر بعض الكراسى لأنه كان يحمل على كتفه ولى عهده الكسيح . . .

وجاءت الكراسى . . . ولم تكن كافية لأحد عشر شخصاً يتوقعون مصيرهم . فاستند بعض الأميرات إلى الحائط برءوس قد أمالها الهم ، والتعب ، والذعر الشديد . . .

وهنا أخرج يورفسكى ورقة من جيبه وتلاها فى سرعة واضطراب ، وكانت أمراً من حكومة الثوار بإعدام القيصر

نيقولا الثانى وأفراد أسرته .

وأراد القيصر أن يعترض على الحكم بقتل زوجته وأولاده ، فأنهم لا ذنب لهم ، وخشى يورفسكى أن يؤثر كلامه فى الجند المكلفين إعدامهم فتقعد الرحمة بهم عن تنفيذ عملهم . . وبدأ هو بإطلاق الرصاص على القيصر ، فأصاب منه مقتلا فى مخه ، وخر على الأرض لا يبدى حراكاً . .

وهنا بدأ الجنود يطلقون الرصاص فى شهوة من الجنون على أفراد الأسرة التاعسة . . واختلط صراخ الصارخين بدوى الرصاص المنهمر فى غرفة محدودة الجهات . .

ولم يكتف الجنود بالرصاص ، ولكنهم استعملوا حرابهم فى شج الرءوس وفضخ الجماجم .

وكأنما انتزعت الرحمة من الجنود انتزاعاً ، فراحوا فى ثورة من الغضب والجنون يطربون لرؤية الدم القانى المتدفق

وفى وسط هذه المجزرة البشعة اضطربت المصابيح البترولية فى أيدى حامليها من الحراس فسقطت على أرض المكان ملتهبة تنذر بحريق هائل ، وتكاثف الدخان فى الطبقة السفلى من البيت الذى كان يدخر لأبناء القياصرة هذا المصير المشئوم .

وجاءت مركبات لتحمل جثث القتلى وأشلاءهم إلى مكان بعيد خارج المدينة ، فألقاها أعوان يورفسكى فى غابة كثيفة ، ومنعوا الناس أن يصلوا إليها ، وسدوا الطرق المؤدية لها .

وكأنما ضن يورفسكى على جثث القيصر وأسرته أن يحتويها قبر ، فأمر بأحراقها بعد أن وضعوها فى أكوام من الحطب ، وصبوا عليها كميات هائلة من البترول وحامض الكبريتيك .

وأثار الهواء ذرات هذه الأجسام التى تمتعت بلذة الحكم ونشوة السلطان . . .

وذاب عرش القياصرة بما يحمله من الجواهر وكريم الأحجار ، كما ذابت أجسام القيصر وأسرته فى لفح النار .

والملك لله الواحد القهار

إمبراطور
يحمل وزر حرب طحون

تكاد تجمع أكثر مصادر التاريخ المعاصر أن الإمبراطور غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا السابق وخاتمة العصر الملكى فيها يحمل إثم الحرب العالمية الأولى، ويعد مسئولا عن الضحايا الذين استشهدوا فيها ، وأن كل قطرة دم سفكت فى تلك المجزرة العالمية البشعة تصرخ بأن ذنبها يقع على كاهل الإمبراطور العنيد . . .

ولقد كان فى النية — بعد أن تنازل غليوم الثانى عن عرشه فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ — أن يحاكم الإمبراطور أمام محكمة دولية باعتباره مجرم حرب ، ومسئولا عن المحنة الكبرى التى هزت كيان العالم منذ أن اندلعت شرارة الحرب الأولى فى سنة ١٩١٤ . ولم يخف الحلفاء نيتهم هذه ، بل عالنوا بها ووضعوها فى شروط الصلح التى وافقت عليها ألمانيا المغلوبة .

وكثيراً ما حاول الإمبراطور المحارب أن ينفى عن نفسه تهمة

احتمال المسئولية فى حرب سنة ١٩١٤ ، وكثيراً ما ألقى التهم على الحلفاء الذين استفزوه بسلسلة من تصرفاتهم التى لم يكن محيص من أن تحمله على إعلان الحرب حملا . . . ولكن الحلفاء يردون عليه بأنه فى الساعة التى كان يتشدق فيها بالسلم، ويثرثر فى أحاديثه المموهة بضرورة إشاعة السلام فى عالم يرقص على بركان — فى تلك الساعة بالذات كان يعمل الأعمال التى أدت إلى الحرب . . . حتى انكشف ما فى قرارة نفسه ، وظهر فى خطبه المثيرة المهيجة التى كان يقذف بها هناوهناك...

وعلى حين وجهت الاتهامات إلى الإمبراطور غليوم الثانى بتحميله إصر الفظائع التى ارتكبت فى الحرب العالمية الأولى ، فإن الحلفاء قد أنصفوا الشعب الألمانى نفسه ، فبرأوه من حمل التبعة الخطيرة التى ألقيت على ضمير عاهله . . . لأن نظام القيصرية الألمانية وروحها كانت تجعل الإمبراطور هو المسئول الوحيد عن كل شىء فى بلاده ، فهو حاكم مطلق لا معقب لحكمه ، وهو فى نظر الشعب حارسه وحاميه ، فليس للشعب الخيرة فى أمر نفسه ، وليس عليه إلا الطاعة لسيده . . .

وهذه العقلية التى سرت فى دماء الشعب الألمانى هى امتداد للفكرة القديمة فكرة القرون الوسطى ، التى كانت تجعل الملك فوق كل اعتبار ، وتضفى على حقه القداسة والتنزيه لأنه ظل الله فى الأرض . . .

وفى ظل هذه العقلية التقليدية البالية جرت ألمانيا إلى الحرب الأولى وانجرت إليها ، ولم يكن لها بد من أن تجيب نداء عاهلها حين دعا إلى قتال الحلفاء . . .

وكثيراً ما عقدت الموازنات بين موقف نابليون بونابرت ، وموقف غليوم الثانى ، فإن نابليون إمبراطور فرنسا لم يحاكم حقاً ، ولكن أجمع الرأى العالمى المتألب ضده على أنه كان مجرماً يستحق العقاب . ومهما يكن من أمر فهل كان نفى نابليون إلى جزيرة «سانت هيلين» جزاء يتكافأ مع عظم الجرم الذى ارتكبه فى نظر خصومه وأعدائه ؟

ويرى بعض المؤرخين الإنجليز أن القسوة الشديدة فى معاملة نابليون ، وأن إبعاده إلى جزيرة مهجورة نائية فى المحيط ، وأن شدة الحراسة له وتشديد الرقابة عليه ، ومتابعة خطواته القصيرة المحدودة فى منفاه — كل ذلك يقابله لطف

ومجاملة كثيرة فى معاملة الإمبراطور الألمانى غليوم الثانى وهو فى معزلة بمدينة « دورن » بهولندة . ويعلل هذا النفر من الكتاب ذلك بأن غليوم الثانى لم يكن يخشى منه أن يعود إلى العرش ثانية بعد ما أنزل منه أو تنازل عنه . . . فقد كان الشعب الألمانى عقب الحرب والهزيمة التى حلت به ، ينساق انسياقاً نحو الحكم الجمهورى ليتخلص من استبداد الحكم المطلق . . . كما أن غليوم الثانى كان له من سلسلة النسب الشريف ، والأبوة العظام ما يجعل له مركزاً خاصاً يختلف عن مركز نابليون ... ألم يكن غليوم سليل بيت « هوهنزلرن » العريق؟ ألم يكن من أجداده فردريك وليم ، وفردريك الثانى ، وفردريك الكبير الذى ترك أنصع الصفحات فى تاريخ الملوك ؟

ويقول المنادون باتهام غليوم الثانى وتحميله مسئولية الحرب بأنه كان يعمل لها منذ زمن طويل ، وكان حزب الحرب الذى غذى الإمبراطور أفكاره وآراءه يعتقد أن ألمانيا تستطيع أن تقف وحدها فى حرب ضد أوربا كلها . . . وكان فى استطاعتهم أن يعجلوا قيام الحرب قبل سنة ١٩١٤ لولا أنهم لم يشاءوا أن يعرضوا ألمانيا للحرب من غير أن تقف النمسا

بجانبها . . . وما أسرع ما وافقت ألمانيا — قبل الحرب — على ضم ولايتى البوسنة والهرسك إلى النمسا ، لتكسب بذلك عواطف النمسويين وشعورهم ، ولتضمن محالفة النمسا لها فيما إذا اشتعلت نار الحرب التى كانت تتوقعها . . .

وقد شاعت الحدود العواثر للإنسانية المتألمة أن يكون مقتل الأرشيدوق « فرنسيس فردناند » ولى عهد النمسا ، ومقتل الأميرة زوجته فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ سبباً لإعلان الحرب .

ويؤكد بعض المؤرخين أنه لو فرض أن النمسا تنازلت عن القصاص من الصرب لقتل ولى عهدها ، فإن الأمبراطور الألمانى نفسه لم يكن ليحجم عن القصاص من القتلة ، لا حباً فى إشعال جذوة الحرب التى كان يتحرق إليها وحسب ، ولكن دفاعاً عن حق كان يرى أنه هو الولى له والمطالب به . . . فقد كان يعتقد أنه يمثل النظام الملكى المقدس فى العالم كله ، وأنه هو حامى الملكية ، كما كانت تعلن أمريكا — فى ذلك الزمان — أنها حامية الديموقراطية . . .

ولهذا اعتقد غليوم الثانى — وهو فى إطار هذه الفكرة الغالبة عليه — أن كل طعنة توجه إلى عرش من العروش فإنها فى الحق

موجهة إلى شخصه . . .

والحق أن غليوم الثانى كان يمثل فكرة الملوك الاستبداديين أصدق تمثيل . . . وكان يحرص على تجسيم هذه الفكرة وتهويلها . . . فقد كان يتحدث مرة مع طبيب أسنانه الخاص الدكتور « أرثر دايفز » الأمريكى عقب انتخاب « ولسن » رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٩١٢ ، فقال لطبيبه فى لهجة ساخرة : وماذا عسى أمريكا أن تصنع وعلى رأسها أستاذ ؟ اعلم يا دايفز أن بلادكم لن تصير عظيمة فعلا حتى ينقلب النظام الجمهورى فيها إلى نظام ملكى . . .

وتشاء الأقدار الساخرة أن لا يمر من الزمان أمد طويل حتى تصبح ألمانيا جمهورية فى سنة ١٩١٨ ، وحتى يذهب النظام الملكى أو الإمبراطورى منها إلى غير عودة ، وأن غليوم الثانى نفسه وهو المتشبث بالملكية ، المؤمن بها ، الممثل لها ينقلب بين عشية وضحاها إلى فرد عادى ، ويلتفت حوله ، فإذا التاج يهوى من فوق رأسه الذى كانت تملؤه آراء عتيقة ، وإذا السلطة المطلقة تضيع من يديه ، فلا أمر ولا نهى ، ولا قوة ولا سلطان ، ولا إرادات إمبراطورية سامية تهتز لها

الأرض ، وقد تهتز لها الأفلاك . . . !

ولكن الإمبراطور الطريد فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ظل يتشبث وهو فى منعزله الهادئ بهولندة بأذيال مجد قديم ، فقد أمر خدمه وهو مجرد من جلالة الملك وأبهته أن يقوموا بالمراسم التى كانوا يقومون بها والتاج على مفرقه فى « بوتسدام » .

وبقيت التشريفات على حالها كأنه لا يزال قابضاً على الصولجان ، وفى يده السلطان . . . فلا يزوره زائر فى مهجره الجميل الأنيق إلا بعد أن يلتمس الإذن بوساطة كبير أمنائه . . .

وإذا دعا أحداً من العظماء أو العلماء أو صحافيي العالم الذين كانوا ينزلون بمدينة « دورن » فلا بد أن تكون الدعوة مكتوبة وموقعاً عليها من رئيس التشريفات باسم « صاحب الجلالة الإمبراطورية » . . . الزائلة . . . ولا بد لزائر الإمبراطور الطريد أن يمر على مكتب رئيس القصر لكى يعرف القواعد التقليدية للمثول فى حضرة الإمبراطور الطريد وتحيته . . .

وقد أبقى غليوم الثانى فى معزله بهولندة حفنة من الخدم الخصوصيين الذين كانوا يظهرون فى ثياب خاصة مذهبة ،

والذين كانوا ينحنون للضيوف ، ويضربون كعوب الأقدام على نحو ما كانوا يصنعون فى قصر بوتسدام . . . عليه السلام ! !

ويبدو أن الإمبراطور الطريد كان لا يزال يحلم بأنه السيد الملك ، ولم تقنعه مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة بأن العرش الألمانى قد هوى من تحته . . . ولم يقنعه ذلك القصر الهولندى العتيق فى تلك المدينة الهولندية بأنه أصبح الآن « إمبراطوراً سابقاً » لألمانيا المهزومة المغلوبة على أمرها فى حرب سنة ١٩١٤ . . . وأن لقب الإمبراطور لا يخلع عليه إلا إبراء لذمة التاريخ . . .

لا ! لم يقتنع الإمبراطور الطريد بذلك . . . فقد ظل بضع سنين بعد تنازله عن العرش وهو يجلس على مائدة العشاء لابسا ملابس القائد العام . . . ! ولم يتخل عن هذه العادة إلا بعد أن أيقن حقيقة أن الدهر قد عصف بعرشه وتاجه وسلطانه ، وأن الأحلام مهما كانت لذيذة فإنها سيعقبها صحو أليم . . .

وعلى الرغم من أن غليوم الثانى كان يظهر حبه لأمريكا فأنه يعتقد أن دخولها الحرب العالمية فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧

هو الذى أصار تاجه وعرشه ، بل أصار ألمانيا إلى ذلك المصير المشئوم . . .

وقد أخذت جيوش أمريكا تتدفق على فرنسا بعد إعلان دخولها الحرب بأشهر قليلة ، ويقدر بعض المؤرخين أن عددهم بلغ ستمائة ألف مقاتل ، وهذه رواية المؤرخ الإنجليزى «هربرت فيشر» . ومهما يكن من عدد الأمريكيين المحاربين فإنهم بقيادة الجنرال « برشنج » قد ساعدوا أكبر مساعدة على تعجيل النهاية . . .

وعلى الرغم من نكبة الجيش البريطانى الخامس تحت قيادة القائد الإنجليزى « جوف » فإن الحلفاء تعلموا كثيراً من الدروس التى عرفوها من أخطائهم . . . وأسندت القيادة العليا لقوات الحلفاء إلى القائد الفرنسى « فوش » الذى قيل عنه إنه أعظم قائد أنجبته أعظم حرب . واختار «فوش » لمعاونته القائد « فيجان » الذى امتاز فوق الحنكة العسكرية والمعرفة الواسعة بالهدوء وبعد النظر . . .

وجاء يوم موقعة « إميان » نذيراً لألمانيا بأن كفة الحلفاء ستكون الراجحة فى الحرب ، وهو يوم ٨ أغسطس من سنة

١٩١٨ ، ولقد سماه « لودندورف » القائد الألمانى باليوم الأسود ، فقد أسر فيه عشرون ألفا من الألمان ، وفقد جيش الإمبراطور أثبت مراكزه وأكثرها أمناً . . .

وأدرك لودندورف — وهو رئيس أركان حرب القيادة الألمانية — أن مواصلة ألمانيا للقتال هو نوع من التغرير الذى يلقى بها إلى التهلكة . . . فطلب من حكومته أن تسعى إلى عقد صلح تخرج منه ألمانيا ببعض الكسب ، قبل أن تلجئها الظروف العصيبة إلى هزيمة منكرة تملى عليها فيها الشروط إملاء ... وأدرك لودندورف — فوق ذلك — بفطنته وبعد نظره أن سوء الحالة فى الجيش الألمانى سيفضى بالبلاد إلى ثورة لا مفر منها . . . ولكن الإمبراطور لم يستمع ، ولم يستمع كذلك حزب الحرب الذى أصر على مواصلة القتال . . .

وقد سبقت بلغاريا وتركيا والنمسا إلى طلب الصلح من الحلفاء بعد أن حل بجيوشها وشعوبها من الإعياء والفاقة ما لا قبل لهم باحتمال أكثر منه . . . ولكن ألمانيا ظلت على إصرارها وعنادها تحارب فى أشهر الخريف من سنة ١٩١٨ .

وكان الجنود الألمان يحاربون فى النهاية بروح فاترة ، وخاصة

بعد ما تقدم أحلافهم بطلب الصلح . . . فسرت فيهم روح من التذمر الذى كان نذيراً بأن العاصفة آتية عما قريب .

وتسلل التذمر فى صفوف الجيش إلى الشعب الذى أنهكه الجوع والحرمان ، وأضناه الشقاء الذى ظل يعانيه أربعة أعوام كانت كأنها الدهر كله . . . ونادى الشعب مطالباً بالصلح العاجل السريع إنقاذاً للبلاد من خطر الهاوية المشرفة عليها ، وابتدأت المنشورات توزع فى أنحاء ألمانيا تدعو إلى طلب الصلح وإنهاء الحرب التى كلفت الناس أكثر مما فى طاقة البشر أن يحملوه . . .

ورفضت أمريكا — وعلى رأسها الرئيس ولسن — أن تدخل فى صلح مع ألمانيا ما دام على رأسها «غليوم الثانى» الذى عده الحلفاء المسئول الأول عن الحرب .

وأدرك الشعب الألمانى أن رغبته الملحة فى الصلح لن تتحقق ما دام الإمبراطور يجلس على العرش ، فابتدأ ينادى بأن يعتزل غليوم عرشه إنقاذاً للبلاد من محنتها . . .

واستحال تذمر الجيش إلى تمرد سافر صريح جرىء . . . لم تعرفه العسكرية البروسية فى نظامها الدقيق وفى طاعتها العمياء ،

فقد رفض جنود البحرية أن يطيعوا أمراً صدر لهم بالخروج من ميناء « كييل » إلى مياه البحر ، لملاقاة أسطول للحلفاء . . .

وكانت هذه الحادثة هى الصيحة التى أنذرت الناس بأن الثورة الألمانية صائرة إلى أبعد الغايات . . . .

وأكرهت الجموع الثائرة من الشعب الألمانى ؛ وهى فى فورة غضبها وسخطها على الذين ساقوهم إلى هذا البلاء والكرب العظيم — أكرهت الإمبراطور العنيد على أن يفوز من الثورة بالسلامة ويهرب خارج البلاد . . .

وفى الصباح المبكر من يوم ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وفى الساعة الخامسة بالضبط ، خرج الإمبراطور غليوم الثانى ومعه ولده وبعض من حراسه وبطانته ، وركبوا سيارتين بلغتا بهم الحدود الهولندية فى سرعة جنونية . . . فقد وصلوا إلى تلك الجارة المحايدة بعد سفر ثلاث ساعات .

ودهش رجال الحدود وحراسها لهذه المفاجأة المباغتة على بكرة الصباح . . . .

ونزل الإمبراطور الطريد الهارب من سيارته وهو فى ثيابه الإمبراطورية الرائعة الجليلة ؛ وتقدم إلى الحراس الهولنديين

يعرفهم بنفسه . . . ومد سيفه إلى ضباط الحدود ، وهى علامة من ميراث القرون الوسطى على التأمين والسلام . . . .

واضطرب الضباط أكثر مما اضطرب حراس الحدود من الجنود ، واتصلوا على عجل بالحكومة التى اتصلت بالملكة « ولهلمين » ملكة هولندة .

وقد أدركت الملكة المسالمة المحايدة دقة الظروف وحرج الموقف الذى صارت إليه هولندة بهذا الضيف البغيض من الحلفاء ومن شعبه الذى ألح فى المطالبة بنزوله عن العرش .

ولقد قامت هولندة بالحيدة التامة فى خلال سنوات الحرب الأربع ، فماذا هى صانعة اليوم حتى تظل محترمة لهذا الحياد ؟!

لقد قررت الحكومة الهولندية أن يحجز الإمبراطور الطريد الهارب فى قصر مريح ، حتى تحل المشكلة على وجه صحيح . . .

وسيق الإمبراطور اللاجىء فى حراسة شديدة إلى قلعة « أمرنجن » الهولندية حيث قدمت إليه وثيقة التنازل عن العرش فأمضاها فى يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

ونقل بعد ذلك إلى قصر من القصور القديمة الجميلة فى مدينة « دورن » الهولندية الصغيرة الهادئة .

وظل الملك الطريد بعد ذلك فى عزلته الوادعة يقطع الوقت بالقراءة وكتابة المذكرات ، وتأليف بعض الكتب التى كان منها كتاب « آبائى » وسلسلة من يومياته .

ولم تفته بعض « الهوايات » الجميلة ، كالموسيقى وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار التى كانت تظفر فى المعارض الهولندية العالمية بأسنى الجوائز .

ولعل أعجب « هوايات » الإمبراطور غليوم الثانى هى الحفر على الخشب ، فقد كان يقضى فيها أكثر ساعات الصباح .

ولما زاره الكاتب الأمريكى المؤرخ « بولتنى بجلوف » ليكتب سيرته ، أخذ الاثنان يخوضان فى أحاديث السياسة على أصوات منشارين دقيقين ، يقطعان فى خشب رقيق . . .

* * *

وكثيراً ما كان الإمبراطور الطريد يتمنى أن يسمح له بالعودة إلى وطنه حيا ، فأن لم يظفر بذلك فلا أقل من أن يؤذن بدفنه — حين يحين أجله — فى ثرى الأرض التى حارب من أجلها . . . .



فهرس

صفحة

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو المتعة والثقافة وسمو النفس .

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك







SPMO